السيدة زينب

رضى الله عنها

محمود الشرقاوى

محمود الشرقاوى



دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٠٨١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا »

.. صدقَ الله العظيم

مقدمة

أشرق نور الاسلام فافتر ثغر الدهر للمرأة عن جو مشرق ، وأمل بعيد ، وأسلوب من الحياة جديد ..

لقد كانت المرأة ــ قديما ــ مسلوبة الحق ، مهدرة الكرامة ، فشريعة « كن » بالصين كانت تعتبرها حيوان لذة ، وشريعتا بابل وآشور كانتا تبيحان جمع العذارى كل عام وبيعهن بالمزاد العلنى على يد كاهن ، وشريعة حمورابى التى اشتهرت بها « بابل » كانت تعدها فى عداد الماشية المملوكة ويدل على نهاية مداها فى تقدير مكانة الأنثى انها كانت تفرض على من قتل بنتا لرجل آخر أن يسلمه ابنته ليقتلها أو يملكها اذا شاء أو يعفو عنها ، وقد يضطر الى قتلها لينفذ حكم الشريعة المنصوص عليها .

وكانت المرأة عند اليونان الاقدمين محرومة من الحرية فى كل ما يرجع الى الحقوق الشرعية ، ومن شرائع « سولون » أن العمل الذى يقوم به انسان تحت تأثير المرأة عمل باطل قانونا ، واذا مات الزوج لا ترث زوجته شيئا من ماله .

وكان الرومانيون لا يعترفون بأن المرأة انسان ، الى أن اجتمع المجمع الرومانى فى سنة ٥٨٦ م ومنحها درجة الانسانية على شرط أن تكون خادمة للرجل لأنها لم تخلق الا لخدمته .

وقد ظل القانون الانجليزى حتى سنة ١٨٥٥ لا يعدها من المواطنين ، كما كان يبيح للرجل بيع زوجته ، وهذا اشبه بما كان يفعله العرب فى جاهليتهم حيث كانت تعتبر من ثروة ابيها وزوجها . وكان القانون الفرنسى لا يبيح لها التعاقد الا برضى الزوج واذنه ، فقد نزع عنها القانون صفة الأهلية فى كثير من

الشئون المدنية ، كما تنص على ذلك المادة السابعة بعد المائتين من القانون المدنى الفرنسى اذ تقرر : « أن المرأة المتزوجة حتى ولو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها ، لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض بدون اشتراك زوجها فى العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية » .

ومع ما ادخل على هذه المادة من قيود وتعديلات فيما بعد ، فان كثيرا من آثارها لا يزال ملازما وضع المرأة الفرنسية من الناحية القانونية الى الوقت الحاضر .

وقد ظلت المرأة تعيش فى ظلام الجهل ، وترسف فى أغلال القيود الى أن انتصرت الحرية على يد الثورة الفرنسية معلنة حقوق الانسان . وقررت أن المرأة فرد اجتماعى يتساوى مع الرجل فى الحقوق والواجبات فتحررت وأثر تحررها فى جميع الأمم .

وقد فرقت اليهودية بين الرجل والمرأة ، معتبرة الرجل كل شيء والمرأة لا شيء ، بدليل أنها كانت تمنعها من الارث مع وجود الذكر ، وكانت لا تبيح لها الوظائف العامة .

وتورث المسيحية هذا الاختلاف ، جاعلة الرجل هو الرأس ، ويبدو هذا واضحا جليا من رسالة « بولس » الى أهل « أفسس » ، اذ يقول :

« يا أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب ، لأن الرجل هو رأس المرأة ، كما أن المسيح هو رأس الكنيسة ، وهو مخلص الجسد ، ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح كذلك النساء لرجالهن فى كل شيء » .

واذا انتقلنا الى جزيرة العرب ، نجد المرأة ليس لها قسمة من الانصاف والكرامة غير القسمة العامة فى بلاد العالم .

وعندما اشرق على الدنيا نور الاسلام ، رفع القرآن المجيد المرأة من المهانة الى مكانة الانسان المعدود من ذرية آدم وحواء ، بريئة من رجس الشيطان ومن حطة الحيوان .

فحينما تحدث القرآن الكريم عن الأصل الذى تفرع منه الانسان ، جعل المرأة شريكة فيه للرجل ، ومن مجموعهما تعددت القبائل والشعوب ، وانتسبت الافراد بالبنوة لكل من الرجل والمرأة ، وبذلك كان الرجل أبا ، وكانت المرأة أما ، واعتبر القرآن الكريم ذلك نعمة على الانسان توجب عليه الشكر ، وتقوى الله ومراقبته ، كما توجب عليه النظرة المستقيمة الى اخيه الانسان الذى يشاركه فى معنى الانسانية ، وفى نسبته الى أصله الذى تكونا منه .

ومعنى هذا أنه لا تفاضل بينهما من جانب الانسانية ، وان التفاضل انما يكون بما يكتسبه الانسان من الخلال التى ترقى بالانسانية الى المستوى الفاضل .

يقول القرآن الكريم :

ـ « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء »

والاسلام يقرر أيضا فى تلبية الفطرة التى خلقت عليها المرأة وهى (الانسانية ذات العقل والادراك والفهم) أن المرأة ذات مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجل ، مسئولة عن نفسها ، وعن عبادتها ، وعن بيتها ، وعن جماعتها .

وهى لا تقل فى مطلق المسئولية عن مسئولية الرجل ، وأن منزلتها من الثواب والعقاب عند الله معقودة بما يكون منها من طاعة أو عصيان ، وطاعة الرجل لا تنفعها وهى طالحة منحرفة ، ومعصيته لا تضرها ، وهى صالحة مستقيمة .

يقول القرآن المجيد :

ـ « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » .

لقد سما القرآن الكريم بالمرأة حتى جعلها بعضا من الرجل ، وحد من طغيان الرجل فجعله بعضـا من المرأة ، وليس فى الامكان ما يؤدى به معنى المساواة أوضح من هذه الكلمة التى تفيض بهـا طبيعة الرجل والمرأة ، والتى تتجلى فى حياتهما المشتركة ، دون تفاضل وسلطان : « للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن » .

واذا كانت المرأة مسئولة مسئولية خاصة فيما يختص بعبادتها ونفسها فهى فى نظر الاسلام ايضا مسئولة مسئولية عامة فيمـا يختص بالدعوة الى الخـير والأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر . يقول الله تعالى :

ـ « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصـلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم » .

وقد رفع الاسلام من شأن المرأة وقرر تلقاء تحملها المسئوليات احترام رأيها فيما تبدو وجاهته ، شأنه فى رأى الرجل تماما ، واذا كان القرآن جاء باختيار آراء بعض الرجال ، فقـد جاء أيضـا باختيار رأى بعض النساء . فان آيات الظهار وأحكامه فى الشريعـة الاسلامية ، وفى القرآن الكريم ، وأن سورة المجادلة أثر من آثار الفكر النسائى ، وصفحة خالدة تلمح فيها على مر الأيام صورة احترام الاسلام لرأى المرأة .

وتحميل المرأة المسئوليات ، يجعل لها أو عليها الحق فى أن تتعلم كل ما يمكنها من القيام بهـذه المسئولية على الوجه الذى

حددت به وطلبت منها عليه ، وهو تحرى الخير والصلاح ، والبعد عن الشر والفساد .

وللمرأة أن تخرج للغزو والقتال ، وتداوى الجرحى ، وتسقى القوم ، وغير ذلك من المهام التى تلائم طبيعتها وتحسن القيام باعبائها .

وقد رفض الاسلام أن تزوج المراة قسرا وكرها ، بل اشترط اذنها وقبولها . وهذا حق وعدل ، فالزواج حياة مشتركة وعلاقة فيها قصد الدوام والاستمرار ، وما يجوز أن تكره المراة على مستقبلها وتحمل على ما تأباه .

فاوجب الاسلام استئذان المراة قبل تزويجها .

فان كانت ثيبا فتجربتها السابقة تجعلها صريحة فى القبول او الرفض .

وان كانت بكرا فالأغلب ان يملكها الحياء فلا تجهر بالاذن ، بل تصمت بلا امارة على اباء ، واكتفى منها بهذا الصمت المقترن بشواهد الرضا .

يقول الرسول الكريم :

ـ لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن . قالوا يا رسول الله كيف أذنها ؟

قال : أن تسكت .

ومن الحقوق التى اختص الاسلام بها الرجل أنه أباح له أن يكون فى عصمته فى وقت واحد أربع زوجات معقود عليهن .

وتعدد الزوجات ليس من مظاهر الاسلام ولا من شعائره ، فقد ضرب الله حوله نطاقا محكما ، وقيده بقيود ثقال ، ففرض فيه العدل الشامل ، وعدم الانسياق مع النفس فى ميلها وهواها واتقاء كل ما من شأنه أن يثير الحقد والضغينة بين زوجاته .

أما ايثار الرجل بضعف نصيب المرأة فى الميراث ، فمرده الى التبعة التى يضطلع بها الرجل فى الحياة ، فالرجل يحتمل نفقات الأسرة من زوجة وأبناء وأقارب ، فمن حقه أن يكون له مثل حظ الأنثيين لهذا السبب وحده ، فى حين أنها مكفولة الرزق اذا تزوجت ، بما يعولها الرجل ، ولها اذا ما طلقت نفقة العدة على نحو ما وجبت لها فى حياتها الزوجية ، وأوجب لها « المتعة » وهو ما يبذله الرجل بعد طلاقها غير نفقة العدة ، مما تحفظ به نفسها وكيانها : « وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين » ، فالمسألة هنا مسألة تفاوت فى التبعة اقتضى تفاوتا فى الارث .

وأما أن الرجل قوام عليها : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم » .

فوجه التفضيل : هو الاستعداد والمرانة فيما يختص بالقوامة ، فالرجل بحكم تخلصه من أعباء الأمومة يواجه أمور الحياة فترة أطول ، ويتهيأ لها بقواه الفكرية جميعا ، فى حين أن المرأة عاطفية ، فاذا جعلت للرجل القوامة على المرأة ، فبحكم الاستعداد لهذه الوظيفة ، فضلا عن أنه المكلف بالانفاق وللناحية المالية صلة وثيقة بالقوامة ، فهى حق مقابل تكليف ، ينتهى فى حقيقته بالمساواة بين الحقوق والتكاليف فى محيط الجنسين ، ومحيط الحياة . « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » هى درجة القوامة التى بينا أسبابها .

وقد يبدو أن هناك تفضيلا آخر فى مسألة الشهادة :

« يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » الى أن قال : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى » .

وليس معنى أن شهادة المرأة الواحدة ، أو شهادة النساء اللاتى ليس معهن رجل لا يثبت بها الحق ، ولا يحكم بها القاضى ، فان أقصى ما يطلبه القضاء ، هو « البينة » وقد حقق العلامة ابن القيم أن البينة فى الشرع أهم من الشهادة ، وأن كل ما يتبين به الحق ويظهره ، هو بينة يقضى بها القاضى ويحكم . وفى ذلك يحكم القاضى بالقرائن القطعية ، ويحكم بشهادة غير المسلم متى وثق بها واطمأن اليها . واعتبار المرأتين فى الاستيثاق كالرجل الواحد ليس لضعف عقلها الذى يتبع نقص انسانيتها ويكون أثرا له ، وانما هو لأن المرأة ــ كما قال الأستاذ الشيخ محمد عبده ــ « ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات ومن هنا تكون ذاكرتها فيها ضعيفة ، ولا تكون كذلك فى الأمور المنزلية التى هى شغلها ، فانها فيها أقوى ذاكرة من الرجل ، وفى طبع البشر عامة أن يقوى تذكرهم للأمور التى تهمهم ويمارسونها ويكثر اشتغالهم بها »

وكان من رفع شأن المرأة العربية فى الاسلام ، أن أفسح المجال أمامها للظهور والقيام بدور ايجابى فى المجتمع .

ففى تصريف الحوادث ، وفى تكوين الرجال ، وفى نشر مطارف العلم ، ونثر طرائف الأدب ، نجد أثرها أشبه ما يكون بأثر الغدير الهادىء الفياض ، فى زهر الرياض .

وقد تتابعت فى الاسلام حوادث عظام ، وتناوبته شدائد ثقال ، وهى على عظمتها ، وفدح أمرها ، لم تقع بمنجاة عن المرأة ، ولا بمعزل عن تصريف زمامها وتدبير الرأى فيها ..

فهاهى السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها كانت للرسول الأعظم منذ أول ساعات النبوة .

لقد نزل عليه الروح الأمين أول ما نزل فى غار حراء . فلم يكن ما رآه بشرا من الناس . ولا خلقا مما يتخيله المتخيلون ، فاقرأه

ما شاء الله أن يقرئه من آى الكتاب العزيز . ثم أخذ يتراءى له فى طريقه بين السماء والأرض ، فلا يلتفت يمنة ولا يسرة حتى يراه فيقف لا يتقدم ولا يتأخر .

كل ذلك ورسول الهدى بين شعاب الجبال ، وفى وحشة الطريق ، فلا أنيس ولا سمير ، ولا معين ولا نصير .

لم يزل الرسول الكريم فى موقفه هذا ، حتى انصرف الملك عنه ، فانصرف هو الى زوجه خديجة فزعا مرعوبا مما سمع ورأى ، فلما بصرت به قالت :

ـ أين كنت يا أبا القاسم ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ، ثم رجعوا الى فحدثها رسول الله حديثه . فقالت:

ـ أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة فى يده ، انى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

وقامت خديجة ، فجمعت عليها ثيابها ، وانطلقت الى ابن عمها ورقة بن نوفل فأخبرته خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال ورقة :

ـ قدوس قدوس ! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وانه لنبى هذه الأمة ، فقولى له : فليثبت . فرجعت خديجة بقول ورقة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت آية البشر والبشرى له .

سارت خديجة أم المؤمنين فى تثبيت قلب الرسول ، وترويح نفسه ، وتأييد أمره . فلم ير شيئا يحزنه ، من رد عليه ، وتكذيب له ، وسخرية به ، ونفور منه ، الا فرجت صدره ، وأذهبت حزنه ، وأثلجت قلبه ، وهونت الأمر عليه .

وفى السنة التاسعة من ذلك الجهاد العظيم ، ماتت خديجة ، فاشتد حزن رسول الهدى على أعز نصرائه ، وأصدق وزرائه .

ماتت خديجة ولكن عظمة المرأة لم تمت ، فقد خلفتها على رعاية الرسول وتأييده وتثبيته فاطمة بنت أسد زوج أبى طالب ابن عبد المطلب ، عم النبى ، وأم أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

لم تكن فاطمة رضى الله عنها خلفا من خديجة فحسب ، بل كانت كذلك خلفا من أبى طالب فى الذود عن الرسول ، والانتصار له ، ورفع الصوت حرا فى سبيله ، ولم يزل ذلك شأنها ، حتى هاجر الرسول صلوات الله عليه الى مهبط أمنه ، ومستقر أنصاره، فتبعته فى هجرته ، فكان بيتها فى المدينة ، كما كان فى مكة ، مآبا طيبا ، ومقيلا كريما .

وكما كانت فاطمة فى نصرة الله وتأييد رسوله ، منقطعة القرين — كذلك كان لها رسول الله يوم لحقت بربها ، فقد كفنها فى ثوبه ، ونزل فى قبرها ، واضطجع فيه ، فكان حقا على القبر أن يشرق بنور الله ، ويعبق بروحه ، ويفيض برحمته .

وقد قيل للرسول صلى الله عليه وسلم :

— ما رايناك صنعت بأحد ما صنعته بهذه ؟

فقال :

— انه لم يكن بعد أبى طالب أبر بى منها .

ذلك فضل الله يختص به من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وها هى السيدة زينب بنت الزهراء ، قد أعرضت عن زهرة الحياة من المال والولد والخدم والحشم ، بخروجها مع أخيها الامام الحسين بن على باذلة النفس والنفيس له فى سبيل الحق ونصرة دين الله ، رغم علمها بما قد يجرى عليهم من المصائب والنوائب .

تلك هى النفوس التى صاغهـا الله من روحه ، ورواها من رحمته ، واصطنعها لاذاعة خلقه ، وهياها لتزكية خلقه ، وابتعثها غرة فى جبين الزمان .

* * *

وهذا الكتاب يروى تاريخ حياة الطاهرة المطهرة ، العالمة العابدة ، العقيلة السيدة زينب رضى الله عنها ، فرع الدوحة النبوية التى بارك الله جل جلاله فيها ، وأنبتها أحسن نبـات ، وزكاها أفضل تزكية ، وجعلها شجرة مباركة ، أصلها ثابت وفرعهـا فى السماء تؤتى كلهـا كل حين باذن ربها جلت قدرته فتهـدى من ضلال ، وتجمع من فرقة ، وتشع على الناس بالنور والضـياء ، وتهديهم طريق السناء !

لقد كانت السيدة زينب وما زالت فخر النساء ، حملت راية الجهاد دفاعا عن الحق والعـدل ، وشاركت الرجال فى الضراء ، والزمت أعداءها الحجة بقوة منطقها وفصيح بيانها وروعة خطابها .

وكانت رضى الله عنها المثل الأعلى فى التضحية والفداء ، تركت وراءها كل غال ونفيس فى الدنيا ، فى سبيل المبدأ والعقيدة . .

وما أحرانا ان نقتبس من منهجها القويم ، وطريقها المستقيم فى الحياة ما يوصلنا الى خير الدنيا والآخرة . .

والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق .

محمود على الشرقاوى

أهل البيت

أهل البيت هم مصابيح الهدى ، شجرة النبوة ، ومهبط الرسالة ، ومنبع الرحمة ، ومعدن العلم ، العاملون القرآن الكريم ، المستجاب دعاؤهم ، الذين رضوا عن الله فرضى الله عنهم .

روى البخارى عن الرسول الكريم قوله :

ـ « لكل شيء أساس ، وأساس الاسلام حب أصحابى وأهل بيتى » .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

ـ « لا يؤمن عبد حتى أكون أحب اليه من نفسه ، وتكون عترتى أحب اليه من عترته ، وأهلى أحب اليه من أهله وذاتى أحب اليه من ذاته » .

وقال عليه الصلاة والسلام :

ـ « أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة ، المكرم لذريتى والقاضى لهم الحوائج والساعى لهم فى أمورهم عندما اضطروا اليه ، والمحب لهم بقلبه ولسانه » .

وقد خصهم الله عز وجل بمزايا منها تحريم الصدقة عليهم لكونها أوساخ الناس وتعويضهم من الفيء والغنيمة ، وطلب اكرامهم وتوقيرهم .

قال عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب أتيت عمر بن عبد العزيز فى حاجة فقال لى :

ـ « اذا كانت لك حاجة فارسـل الى أو اكتب بهـا فانى أستحى من الله أن يراك على بابى » .

وقد حث الرسول الكريم على الاقتداء بهم والتعلم منهم فقد برأهم الله جل جلاله من كل وصمة وسقطة وعثار وميزهم بأنهم الحائزون لقصب السبق فى كل كمال ومضمار .

قال رسول الهدى :

ـ « الحمد لله الذى جعل فينا الحكمة أهل البيت » .

وقال عليه الصلاة والسلام :

ـ « نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد » .

ويجب احترامهم وتعظيمهم والثناء عليهم . قال أنس : بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد اذ أقبل على (بن أبى طالب) فسلم ثم وقف ينظر موضعا يجلس فيه فنظر صلى الله عليه وسلم فى وجوه الصحابة أيهم يوسع له . وكان أبو بكر رضى الله عنه عن يمينه فتزحزح له عن مجلسه وقال : ههنا يا أبا حسن . فجلس بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين أبى بكر فعرف السرور فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

ـ يا أبا بكر انما يعرف الفضل لأهل الفضل ذو الفضل .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

« توفى لصفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها ابن ، فبكت عليه فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تبكين يا عمة ، من توفى له ولد فى الاسلام كان له بيت فى الجنة يسكنه » .

فلما خرجت لقيها رجل ، فقال لها : ان قرابة محمد لن تغنى عنك من الله شيئا ، فبكت ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم

صوتها ، ففزع من ذلك فخرج ، وكان صلى الله عليه وسلم مكرما لها يبرها ويحبها ، فقال لها :

ـ يا عمة ، تبكين وقد قلت لك ما قلت ؟

قالت : ليس ذلك ابكانى ، واخبرته بما قال الرجل ، فغضب صلى الله عليه وسلم وقال :

« ما بال أقوام يزعمون أن قرابتى لا تنفع ان كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة الا سببى ونسبى وان رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة » .

وعن ابن عمر ، رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول من أشفع له يوم القيامة من امتى ، أهل بيتى ، ثم الأقرب فالأقرب ، ثم الأنصار ، ثم من آمن بى واتبعنى من أهل اليمن ثم سائر العرب ثم الأعاجم » .

وروى عن كعب بن شجرة أنه قال : لما نزلت الآية الكريمة :

« ان الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

قلنا : يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك ؟

فقال : قولوا اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد .

وروى عن الرسول الكريم قوله :

ـ « لا تصلوا على الصلاة البتراء » .

فقالوا : وما الصلاة البتراء ؟

قال : تقولون اللهم صلى على محمد وتمسكون بل قولوا اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد .

قال الامام الشافعي رضي الله عنه :

يا أهل بيت رسـول الله حبكم ... فرض من الله في القـرآن أنزله
كفـاكم من عظيم القـدر أنكم ... من لم يصل عليكم لا صلاة له(١)

ولما أحس الرسول صلى الله عليه وسلم أن النهاية قد آذنت وأنه ملاق ربه جل جلاله عما قريب ، أوصى المسلمين بآله خيراً ، وقال :

ـــ « إني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا أحـدهما أعظم من الآخر ، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهـل بيتي ، وأن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحـوض يوم القيـامة ، فانظروا بما تخلفـوني فيهما » .

وحب أهل البيت واجب ، فهم أساس الدين ، وعماد اليقين ، يقول الامام محي الدين بن عربي :

رأيت ولائي آل طه فريضـة ... على رغم أن البعد يورثني القربا
فما طلب المبعوث أجرا على الهدى ... بتبليغه الا المـودة في القـربى

خطب الحسن بن علي رضي الله عنه بعد بيعة الناس له بالأمر فقال :

« نحن حزب الله الغـالبون ، ونحن عترة رسـوله الأقربون ، ونحن أهل بيته الطيبون ، ونحن أحد الثقلين اللذين خلفهما جدي صلى الله عليه وسلم في أمته ، ونحن ثاني كتاب الله ، فيه تفصيل كل شيء ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فالمعول علينا في تفسيره ، وتأويله ، فأطيعونا فان طاعتنا

---

(١) أي لا صلاة له صحيحة او لا صلاة له كاملة (الصواعق المحرقة ص ٨٨) .

مفروضة اذا كانت بطاعة الله عز وجل ، وطاعة رسوله مقرونة ، قال جل شأنه :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الأمر منكم » .

وعنه ايضا ، قال :

« نحن ائمة المسلمين وحجج الله على العالمين ، وسادة المؤمنين ، وقادته الغر المحجلين ، وموالى المسلمين ، ونحن أمان لأهل الأرض ، كما أن النجوم أمان لأهل السماء ، بنا ينزل الغيث ، وتنشر الرحمة وتخرج بركات الأرض ، ولولا ما على الأرض منا لانساخت بأهلها » .

وعنه أيضا قال :

« أيها الناس ، من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن على ، وأنا ابن النبى ، وأنا ابن البشير النذير ، وأنا ابن الداعى الى الله باذنه ، وانا ابن السراج المنير ، وانا من أهل البيت الذى أذهب الله عنهم الرجس وظهرهم تطهيرا ، وانا من أهل بيت افترض الله مودتهم على كل مسلم فقال تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :

« قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا » ، فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت » .

* * *

تحدث السيوطى فى « العجاجة الزرنبية (١) » فى السلالة

(١) الزرنب : طيب أو شجر طيب الرائحة ، والزعفران .

الزينبية » عن السيدة الطاهرة زينب وأولادها ، من عشرة أوجـه فقال (١) :

« أحـدها : انهم من آل النبى صلى الله عليه وسلم وأهل بيته بالاجماع ،لأن آله هم المؤمنون من بنى هاشم والمطلب ».

وأخرج مسلم والنسائى عن زيد بن أرقم قال :

قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا فقال : اذكركم الله فى أهل بيتى — ثلاثا —

فقيل لزيد بن أرقم : ومن هم أهل بيته ؟

فقال : أهل بيته من حرم الصدقة بعده .

قيل : ومن هم ؟

قال : آل على ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس ».

الثانى : انهم من ذريته وأولاده بالاجماع ، وهذا المعنى أخص من الذى قبله .

قال البغدادى فى التهذيب : أولاد بنات الانسان لا ينسبون اليه وان كانوا معدودين فى ذريته ، حتى لو أوصى لأولاد أولاد فلان يدخل فيـه ولد البنت .

الثالث : انهم هل يشاركون أولاد الحسن والحسين فى انهم ينسبون الى النبى صلى الله عليه وسلم ؟

والجواب : لا ، وهذا المعنى أخص من الوجه الذى قبله .

وقد فرق الفقهاء بين من يسمى ولدا للرجل وبين من ينسب اليه ؛ ولهذا قالوا :

---

(١) راجع ايضا كتاب « نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختـار » ص ١٦٩ وما بعدها .

لو قال: وقفت على أولادي دخل ولد البنت . ولو قال : وقفت على من ينسب الى من أولادى : لم يدخل ولد البنت .

وقد ذكر الفقهاء من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه ينسب اليه أولاد بنـــاته ، ولم يذكروا مثل ذلك فى أولاد بنـــات بناته ، فالخصوصية للطبقة العليا فقط ، فأولاد فاطمة الأربعة ينسبون اليه (١) ، وأولاد الحسن والحسين ينسبون اليها فينسبون اليه ، وأولاد زينب وأم كلثوم ينسبون الى أبيهم عمر وعبـــد الله لا الى الأم ؛ ولا الى أبيها صلى الله عليه وســـلم ، لأنهم أولاد بنت بنته لا أولاد بنته ، فجرى الأمر فيهم على قاعدة الشرع فى أن الولد يتبع أباه فى النسب لا أمه ، وانما خرج أولاد فاطمة وحدها للخصوصية التى ورد الحديث بها ، وهو مقصور على ذرية الحسن والحسين .

أخرج الحاكم فى المستدرك عن جابر قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل بنى أم عصبة ، الا ابنى فاطمة ، وأنا وليهما وعصبتهما .

وأخرج أبو يعلى فى مسنده عن فاطمة رضى الله عنها قالت :

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل بنى أم عصبة الا ابنى فاطمة ، أنا وليهما وعصبتهما .

فانظر الى لفظ الحـــديث كيف خص الانتســـاب والتعصيب بالحسن والحسين دون أختيهما ، لأن أولاد أختيهما انما ينسبون الى آبائهم .

ولهذا جـــرى السلف والخلف على أن ابن الشريفة لا يكون شريفا ، اذا لم يكن أبوه شريفا ، ولو كانت الخصوصيـــة عامة فى أولاد بناته وان سفلن لكان ابن كل شريفة شريفا تحرم عليه الصدقة

---

(١) أولاد فاطمة الزهراء هم : الحسن والحسين ، وأم كلثوم وزينب رضى الله عنهم .

وان لم يكن أبوه كذلك ، وليس كذلك كما هو معلوم .

ولهذا حكم صلى الله عليه وسلم بذلك لابنى فاطمة دون غيرها من بناته ؛ لأن أختها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تعقب ذكرا حتى يكون كالحسن والحسين فى ذلك . وانما أعقبتا بنتا ، وهى امامة بنت أبى العاص بن الربيع ، فلم يحكم لها صلى الله عليه وسلم بهذا الحكم مع وجودها فى زمنه ، فدل على أن أولادها لا ينسبون اليه لأنها بنت بنته ، وأما هى فكانت تنسب اليه بناء على أن أولاد بناته ينسبون اليه ، ولو كان لزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد ذكر لكان حكمه حكم الحسن والحسين فى أن ولده ينسبون اليه صلى الله عليه وسلم .

الوجه الرابع : أنهم هل يطلق عليهم « أشراف » ؟

والجواب : أن اسم « الشريف » كان يطلق فى الصدر الأول على كل من كان من أهل البيت ، سواء أكان حسنيا ، أم حسينيا ، أم علويا من ذرية محمد بن الحنفية ، وغيره من أولاد على بن أبى طالب ، أم جعفريا ، أم عقيليا أم عباسيا .

ولهذا تجد تاريخ الحافظ الذهبى مشحونا فى التراجم بذلك القول : الشريف العباسى ، الشريف العقيلى ، الشريف الجعفرى ، الشريف الزينبى .

فلما ولى الخلافة الفاطميون بمصر قصروا اسم الشريف على ذرية الحسن والحسين فقط ، فاستمر ذلك بمصر الى الآن .

وقال الحافظ ابن حجر فى كتاب « الألقاب » : الشريف ببغداد لقب لكل عباسى ، وبمصر لقب لكل علوى .

ولا شك أن المصطلح القديم أولى ، وهو اطلاقه على كل علوى وجعفرى ، وعقيلى ، وعباسى .

الوجه الخامس : وقد يقال على مصطلح أهل مصر : « الشريف » أنواع :

عام لجميع أهل البيت ، وخاص بالذرية ، فيدخل فيه الزينبية ، وأخص منه شريف النسبة ، وهو يختص بذرية الحسن والحسين .

الوجه السادس : انهم يحرم عليهم الصدقة بالاجماع ، لأن بنى جعفر من الآل .

الوجه السابع : انهم يستحقون من وقف « بركة الحبش » بالاجماع ، لأن بركة الحبش لم توقف على أولاد الحسن والحسين خاصة ، بل وقفت نصفين : النصف الأول على الأشراف ، وهم أولاد الحسن والحسين ، والنصف الثانى على الطالبيين وهم ذرية على بن ابى طالب من محمد بن الحنفية واخوته ، وذرية جعفر بن ابى طالب ، وذرية عقيل بن أبى طالب .

الوجه الثامن : انهم هل يلبسون العلامة الخضراء أولا ؟

الجواب : أن هذه العلامة ليس لها أصل فى الشرع ولا فى السنة . ولا كانت فى الزمن القديم ، وانما حدثت سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، بأمر الملك الأشرف شعبان بن حسين ، وقال فى ذلك جماعة من الشعراء ، من ذلك قول أبى عبد الله بن جابر الأندلسى :

جعلوا لأبناء الرسول علامة ... أن العلامة شأن من لم يشهر

نور النبوة فى وسيم وجوههم ... يغنى الشريف عن الطراز الأشهر

وقال الأديب شمس الدين محمد بن ابراهيم الدمشقى :

اطراف تيجان أتت من سندس ... خضر بأعلام على الأشراف

و «الأشرف السلطان» خصهم بها ... شرفا ليعرفهم من الأطراف

وحظ الفقيه فى ذلك اذا سئل ان يقول : لبس هذه العلامة بدعة مباحة ، لا يمنع منها من أرادها من شريف وغيره ، ولا يؤمر بها من تركها من شريف وغيره . والمنع منها لأحد من الناس كائنا من كان ليس أمرا شرعيا ، لأن الناس مضبوطون بأنسابهم الثابتة ، وليس لبس العلامة مما ورد به الشرع ، فيتبع اباحة ومنعا أقصى ما فى الباب أنه احدث التمييز بها لهؤلاء عن غيرهم . فمن الجائز أن يخص ذلك بخصوص الأبناء المنتسبين الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهم ذرية الحسن والحسين .

ومن الجائز أن يعمم فيهم وفى كل ذريته وان لم ينسبوا اليه كالزينبية .

ومن الجائز أن يعمم فى كل أهل البيت ، كما فى العلوية والجعفرية والعقيلية .

الوجه التاسع والعاشر : هل يدخلون فى الوصية على الأشراف والوقف عليهم ؟

والجواب : أنه اذا وجد فى كلام الموصى والواقف نص يقتضى دخولهم وخروجهم اتبع ، وان لم يوجد فيه ما يدل على هذا فقاعدة الفقيه أن الوصايا والأوقاف تتنزل على عرف البلد . وعرف مصر من عهد الخلفاء الفاطميين الى الآن ان الشريف لقب لكل حسنى وحسينى خاصة ، فلا يدخلون على مقتضى هذا العرف ، وانما قدمت دخولهم فى وقف « بركة الحبش » لأن واقفها نص فى وقفه على ذلك ، حيث أوقف على ذلك ، فانه وقف نصفها على الأشراف ونصفها على الطالبيين » .

* * *

جاء فى كتاب « عيون الأخبار » :

« قيل حضر الرضا عليه السلام مجلس المأمون بمرو ، وقد

اجتمع فى مجلسه جماعة من علماء أهل العراق وخراسان ، فقال المأمون :

ـــ « أخبرونى عن معنى هذه الآية :

« ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » .

فقالت العلماء :

ـــ أراد الله عز وجل بذلك الأمة كلها .

فقال الرضا عليه السلام :

ـــ المراد بذلك « العترة الطاهرة » لأنه لو كان المراد الأمة ، لكانت بأجمعها فى الجنة ، لقول الله عز وجل :

« فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير » . ثم جمعهم كلهم فى الجنة فقال :

« جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب » . (الآية) .

فصارت الوراثة للعترة الطاهرة لا لغيرهم ، وهم الذين نزل بشأنهم :

« انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

وهم الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« انى مخلف فيكم الثقلين ، كتاب الله ، وعترتى أهل بيتى ، الا وانهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض ، فانظروا كيف تخلفونى فيهما » .

وقال الرضا :

ـ ان الصدقات تحـرم عليهم دون غيرهم ، أما علمتم انه وقعت الوراثة ، والطهـارة على المصطفين المهتدين دون سائرهم لقول الله تعالى :

[ولقـد ارسلنا نوحا وابراهيم وجعلنـا فى ذريتهما النبـوة والكتاب ، فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون] .

فصارت وراثة النبـوة والكتاب للمهتدين دون الفاسقين ، وفضل العترة على غيرهم ثابت :

لقوله تعالى :

ـــ « ان الله أصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » .

ـــ « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضـله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » .

ثم خاطب سائر المؤمنين بقوله تعالى :

ـــ « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » يعنى الذين قرنهم بالكتاب والحكمة ، وحسد الناس عليهم ، وقد فسر الله عز وجل اصطفاء العترة فى الكتاب :

١ ـ قال تعالى :

« وأنذر عشيرتك الأقربين » .

٢ ـ وقال جل شأنه :

« انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

٣ ـ وقال عز وجل :

« فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

فأبرز النبى صلى الله عليه وسلم ، عليا ، والحسن والحسين ، وفاطمة ، وعنى فى قوله : « أنفسنا نفس على ، ومما يدل على ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم لتنتهين بنو وليعة أو لأبعثن اليهم رجلا كنفسى ، يعنى على بن أبى طالب فهذه خصوصية لا يلحقهم فيها بشر .

٤ ـ اخراجه صلى الله عليه وآله وسلم الناس من مسجده ما خلا العترة حتى تكلم الناس والعباس فى ذلك فقال العباس :

ــ يا رسول الله تركت عليا واخرجتنا .

فقال عليه السلام :

ــ ما أنا تركته واخرجتكم ، ولكن الله عز وجل تركه واخرجكم .

وفى هذا بيان قوله لعلى : أنت منى بمنزلة هرون من موسى .

قال الله تعالى : « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة » .

ففى هذه الآية منزلة هرون من موسى وفيها منزلة على من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع هذا قال النبى صلى الله عليه وسلم الا أن هذا المسجد لا يحل الا لمحمد وآله ، قالت العلماء : هذا البيان لا يوجد الا عندكم أهل البيت ومن ينكر ذلك .

٥ ـ قول الله تعالى : « وآت ذا القربى حقه » خصوصية لهم ؟ فلما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم لفاطمة عليها السلام : « هذه فدك وهى مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، وهى لى خاصة دون المسلمين وقد جعلتها لك لما أمرنى الله به فخذيها لك ولولدك » .

٦ ـ قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه اجرا الا المودة فى القربى » .

وهذه خصوصية للآل دون غيرهم ، فهذه المودة فريضة من الله تعالى على كافة المؤمنين لا يأتى بها احدا مؤمنا مخلصا الا إستوجب الجنة ، لقول الله تعالى فى هذه الآية :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ، ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » مفسرا ومبينا لكن ما وفى بهذه الآية أكثرهم .

قال ابو الحسن : حدثنى أبى عن جدى عن آبائه عن أمير المؤمنين على عليهم السلام : أنه اجتمع المهاجرون والأنصار الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا :

ان لك يا رسول الله مؤنة فى نفقتك وفيمن يأتيك من الوفود ؟ وهذه أموالنا مع دمائنا فاحكم فيها بارا مأجورا إعط ما شئت وأمسك ما شئت من غير حرج ، فأنزل الله تعالى عليه الروح الامين فقال : يا محمد (قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » .

فخرجوا ؛ فقال المنافقون : ما حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك ما عرضنا عليه الا ليحثنا على مودة قرابته من بعده ان هو الا شيء افتراه فى مجلسه ، فهذا بهتان عظيم ، فأنزل الله تعالى :

« أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور » .

فبعث اليهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

ـــ هل من حديث ؟

قالوا : لقد قال بعضنا كلاما غليظا كرهناه ، فتلا عليهم هذه الآية ، فبكوا واشتد بكاؤهم ، فأنزل الله تعالى :

« وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » .

٧ ـ قال الله تعالى : « ان الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

قيل : يا رسول الله عرفنا التسليم عليك فكيف الصلاة عليك ؟

فقال : قولوا اللهم صلى على محمد وآل محمد كما صليت وباركت على ابراهيم وآل ابراهيم فى العالمين انك حميد مجيد .

وقال الله تعالى : سلام على آل يس ـ يعنى آل محمد صلى الله عليه وسلم ـ ولم يسلم على آل أحد من الأنبياء عليهم السلام سواه .

٨ ـ قال الله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى » فقرن سهم ذى القربى بسهمه وبسهم رسوله ، فهذا فضل أيضا للآل دون الأمة ، وأما قوله : واليتامى والمساكين ، فان اليتيم اذا انقطع يتمه ، والمسكين اذا انقطعت مسكنته لم يكن له نصيب من المغنم ، وسهم ذى القربى الى يوم القيامة قائم فيهم الغنى والفقير منهم سواء ، فقرن سهمهم بسهمه .

وكذلك فى الطاعة قال تعالى :

— « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

وقال الله تعالى :

— « انما وليكم الله ورســوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » .

فجعل طاعتهم مع طاعة الرســول مقــرونة بطاعته ، وكذلك ولايتهم مع ولاية الرســول مقرونة بولايتــه ، كما جعل سهمهم مع سهم الرسول مقرونا بسهمه فى الغنيمة والفىء ، فلما جاءت قصة الصدقة نزه نفسه ورسوله ونزه أهل بيت رسوله ، فقال :

« انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفــة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله » .

والصدقة محرمة على محمد وآل محمد وهى أوساخ أيدى النــاس لا تحل لهم ، لأنهم مطهرون من كل دنس ووسخ ، فلما طهرهم الله واصطفاهم رضى لهم ما رضى لنفسه ، وكره لهم ما كره لنفسه عز وجــل وتعــالى وتقدس وتبــارك وعظم شــأنه ودام احسانه .

٩ — قال الله تعالى : « فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » فنحن أهــل الذكر ، لأن الذكر رســول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن أهــله حيث قال تعالى فى ســورة الطلاق : « فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله اليكم ذكرا ، رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات » .

١٠ — قال تعالى : « وأمر أهلك بالصــلاة واصطبر عليهــا » فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجىء الى باب على وفاطمة

عليهم السلام بعد نزول هذه الآية تسعة أشهر كل يوم عند حضور كل صلاة خمس مرات فيقول : الصلاة يرحمكم الله ، فقال أبو الحسن : الحمد لله الذى خصنا بهذه الكرامة العظمى .

فقال المأمون والعلماء :

— « جزاكم الله أنتم أهل البيت عن هذه الأمة خيرا » .

ان مودة ومحبة اهل البيت ، هى ما كانت مع اتباع للسنة النبوية ، اذ ان مجرد محبتهم من غير اتباع للسنة لا تفيد مدعيا شيئا من الخير ، ومحبو أهل البيت حقا معهم فى الجنة ، كما جاء فى الحديث الشريف .

وقد وصف على بن ابى طالب كرم الله وجهه ، محب اهل البيت فقال :

« شيعتنا هم العارفون بالله العاملون بأمر الله . أهل الفضائل الناطقون بالصواب ، مأكولهم القوت وملبوسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع ، نجعوا لله بطاعته ، وخضعوا اليه بعبادته مضوا غاضين ابصارهم عما حرم الله ، رافعين اسماعهم على العلم بربهم ، نزلت أنفسهم منهم فى البلاء كالتى نزلت فى الرخاء . رضوا عن الله تعالى بالقضاء فلولا الآجال التى كتب الله لهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقا الى لقاء الله والثواب وخوفا من أليم العقاب . عظم الخالق فى أنفسهم وصغر ما دونه فى أعينهم فهم والجنة كمن رآها على أرائكها متكئون ، وهم والنار كمن رآها فهم فيها معذبون صبروا أياما قليلة فأعقبهم راحة طويلة ، ارادتهم الدنيا فلم يريدوها وطلبتهم فأعجزوها . أما الليل فصافون أقدامهم تالون لأجزاء القرآن ترتيلا يعظون أنفسهم بأمثاله ويستشفون لدائهم بدوائه تارة ، وتارة يفترشون جباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم تجرى دموعهم على خدودهم يمجدون

جبارا عظيما ، ويجأرون اليه فى فكاك رقابهم ، هذا ليلهم ؟ فأما نهارهم فحكماء بررة ، علمـاء أتقيـاء براهم خوف باريهم فهـم كالقداح تحسبهم مرضى أو قد خولطوا وما هم كذلك بل خامرهم من عظمة ربهم وشدة سلطانه ما طاشت له قلوبهم وذهلت منه عقولهم فاذا أشفقوا من ذلك بادروا الى الله تعالى بالأعمال الزاكية لا يرضون له بالقليـل ولا يستكثرون له الجـزيل فهم لأنفسهم متهمون ومن أعمالهم مشفقون ، ترى لأحدهم قوة فى دين ، وحزما فى لين ، وايمانا فى يقين ، وحرصا على علم ، وفهما فى فقه ، وعلما فى حلم ، وكيسا فى قصد ، وقصدا فى غنى ، وتجملا فى فاقة ، وصبرا فى شفقة ، وخشوعا فى عبـادة ورحمة لمجهود واعطاء فى حق ، ورفقا فى كسب ، وطلبا فى حلال ونشاطا فى هدى ، واعتصاما فى شهوة لا يغره ما جهله ولا يدع احصاء ما عمله يستبطىء نفسه فى العمـل وهو من صالح عمـله على وجل ، يصبح وشغله الذكر ويمسى وهمه الشكر ، يبيت حذرا من سنة الغفلة ويصبح فرحا بما أصاب من الفضل والرحمـة ، ورغبتـه فيما يبقى ، وزهادته فيما يفنى . قد قرن العلم بالعمل ، والعلم بالحلم دائما ، نشاطه بعيدا ، كسله قريبا ، أمله قليلا ، زلله متوقعا ، أجله عاشقا قلبه شاكرا ربه قانعا نفسه ، كاظما غيظه آمنا منه جاره ، سهلا أمره ، بينا صبره ، كثيرا ذكره لا يعمل شيئا من الخير رياء ، ولا يتركه حياء أولئك شيعتنا وأحبتنا ».

هذه الأوصاف الجليـلة الرفيعة البـاهرة الكاملة هى التى ينبغى أن يتحلى بها كل مسلم كى يصبح من أحباء أهل البيت النبوى الكريم .

مولدها ونشأتها

فى المدينة التى فتحت قلبها وعقلها لدعوة الحق الذى جاء به محمد من عند ربه ..

المدينة التى اشرق عليها نور الاسلام ، فاهتدت بعد ضلال ، ورشدت بعد غى ، وعرفت الحـــق فاتبعته ، فكان أهلها أنصـــار الرسول الأعظم ، وحملة مشاعل الهـــداية ، وكتيبة الايمان التى تصدت لكل مؤامرات قريش واليهود . فنصرهم الله نصرا عزيزا ، وعم نور الاسلام الجزيرة العربية ، ومنها شع نور الهداية الى انحاء المعمورة ..

فى هذه المدينة المنورة .. ولدت الطاهرة النقية ، زينب ، فى شعبان من السنة الخامسة للهجرة ، الموافقة لسنة ٦٢٦ ميلادية .. من أبوين كريمين :

أمها فاطمة الزهراء بنت الرســول الكريم ، معلم الانسانية ، وهاديها ، ومرشدها الى الحق والى الصراط المستقيم .

وقد خصت الزهراء البتول من أبيها صلى الله عليه وســلم بأحاديث تدل على أن الرسول الأعظـم كان يختصها بمحبته ، ويؤثرها بمودته ، وأن لها موضعا فى نفسه ، ومكانا من قلبه .

عن مجاهد رضى الله عنه ، قال : خرج النبى صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد فاطمة ، فقال :

« من عرف هذه فقد عرفها ، ومن لم يعرفها ، فهى فاطمة بنت محمد ؛ وهى بضعة منى ، وهى قلبى ، وروحى التى بين جنبى ، فمن آذاها فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله تعالى .. »

وعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ثم ينادى مناد من بطنان العرش ان الجليل جل جلاله يقول : نكسوا رءوسكم وغضوا أبصاركم فان فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تريد أن تمر على الصراط .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان ملكا من السماء لم يكن زارنى ، فاستأذن ربى فى زيارتى فبشرنى وأخبرنى أن فاطمة سيدة نساء أمتى .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت :

ــ « ما رأيت أحدا من خلق الله أشبه حديثا وكلاما برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة ، وكانت اذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ورحب بها وأجلسها فى مجلسه ، وكان اذا دخل عليها قامت اليه ، ورحبت به ، وأخذت بيده فقبلتها » .

وعن عبد الله ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

ــ « ان فاطمة أحصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار » .

عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على على وفاطمة ، وأخذ بعضادتى الباب ، وقال : « السلام عليكم يا أهل بيت الرحمة وموضع الرسالة ومنزل الملائكة ، يا بنية ان الله سبحانه وتعالى أطلع على أهل الأرض اطلاعه فاختار أباك فجعله نبيا ، ثم أطلع الثانية فاختار منهم زوجك عليا فجعله لى أخا ووصيا ، ثم أطلع الثالثة فاختارك وأمك فجعلكما سيدتى النساء ، ثم اطلع الرابعة فأختار ابنيك فجعلهما سيدى

شباب أهل الجنة ، فقال العرش ، أى ربى ، ابنى نبيك ، وابنى وصى نبيك زينى بهما فهما يوم القيامة فى ضفتى العرش بمنزلة الشفتين من الوجه .

وقد آثر الله جل جلاله فاطمة الزهراء بما لم يؤثر به شقيقاتها الثلاث : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، فكتب لها أن تكون وحدها الوعاء الطاهر للسلالة الطاهرة ، والمنبت الطيب لدوحة الأشراف من أهل البيت .

* * *

وأبوها على بن أبى طالب كرم الله وجهه، ابن عم الرسول صلوات الله عليه ، وأحب عترته اليه ، أسلم على يديه صبيا قبل أن يمس قلبه عقيدة سابقة أو يخالط عقله شوب من شرك موروث ولازمه فتيا يافعا فى غدوه ورواحه وسلمه وحربه ، حتى تخلق بأخلاقه واتسم بصفاته ، وفقه عنه الدين وتفقه ما نزل به الروح الأمين .

قالت فاطمة رضى الله عنها : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقلت : السلام عليك يا أبت ، فقال : وعليك السلام يا بنية .

فقلت والله ما أصبح يا نبى الله فى بيت على حبة طعام ولا دخل بين شفتيه طعام منذ خمس ولا أصبحت له ثاغية ولا راغبة ولا أصبح فى بيته سفة ولا هفة .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، ادنى منى ، فدنوت ، فقال : أدخلى يدك بين ظهرى وثوبى ، فاذا حجر بين كتفى النبى صلى الله عليه وسلم مربوط الى صدره ، فصاحت فاطمة صيحة شديدة ، فقال لها : ما أوقدت فى بيوت آل محمد نار منذ شهر ثم قال : صلى الله عليه وسلم اتدرين ما منزلة على ؟ انه كفانى أمرى وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، وضرب بين يدى بالسيف وهو ابن ست عشرة سنة وقتل الأبطال وهو ابن تسع عشرة سنة ، وفرج همومى وهو

ابن عشرين سنة ورفع باب خيبر وهو ابن نيف وعشرين وكان لا يرفعه خمسون رجلا فأشرق وجه فاطمة ثم أتت عليا فاذا البيت قد أنار بنور وجهها فقال لها :

ــ يا ابنة محمد لقد خرجت من عندى ووجهك على غير هــذه الحال .

فقالت : ان النبى صلى الله عليه وسلم حدثنى بفضلك فما تمالكت حتى جئتك ..

يقول المحب الطبرى فى كتاب « الرياض النضرة » .

روى أبو سعيد فى شرف النبوة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى :

« أوتيت ثلاثا لم يؤتهن أحد ولا أنا : أوتيت صهرا مثلى ولم أوت أنا مثلى ، وأوتيت زوجة صديقة مثل ابنتى ، ولم أوت مثلها زوجة ، وأوتيت الحسن والحسين من صلبك ، ولم أوت من صلبى مثلهما ، ولكنكم منى وأنا منكم .. وفى رواية أوتيت أربعة ، والرابعة لولاك ما عرف المؤمنون .. اشارة الى قول الرسول : من كنت مولاه فعلى مولاه » .

ويقول ابن عبد البر فى الاستيعاب :

« كان على اذا ورد عليه مال لم يبق منــه شيئا الا قسمه ، ولا يترك فى بيت المــال منه الا ما يعجز عن قسمته فى يومه ذلك . ولم يكن يستأثر من الفىء بشىء ولا يخص به حميما ولا قريبا ولا يخص بالولايات الا أهل الديانات والأمانات ، واذا بلغه من أحدهم خيانة كتب اليه :

« قد جاءتكم موعظة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان بالقسط

ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ » .

ويقول ابن عبد البر :

« اجمعوا على أنه صلى القبلتين وهاجر وشهد بدرا والحديبية وسائر المشاهد وأنه أبلى ببدر وبأحد وبالخندق وبخيبر بلاء عظيما » .

كان العلم يتفجر من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، وكان رضى الله عنه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويقول : « يا دنيا غرى غيرى الى تعرضت أم الى تشوقت هيهات هيهات قد ثبتك ثلاثا لا رجعة فيها ، فعمرك قصير وخطرك كبير وعيشك حقير آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق » .

يقول ابن أبى حديد فى شرح « نهج البلاغة » فى مناقب الامام على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه .

« اجتمع للامام على بن ابى طالب من صفات الكمال ومحمود الشمائل والخلال وسناء الحب وباذخ الشرف مع الفطرة النقية والنفس المرضية ، مالم يتهيأ لغيره من أفذاذ الرجال .

تحدر من أكرم المناسب وانتمى الى أطيب الأعراق ، فأبوه أبو طالب ، عظيم المشيخة من قريش ، وجده عبد المطلب أمير مكة وسيد البطحاء ، ثم هو قبل ذلك من هامات بنى هاشم وأعيانهم .

وبنو هاشم كانوا كما وصفهم الجاحظ « ملح الأرض » وزينة الدنيا وحلى العالم . والسنام الأضخم ، والكاهل الأعظم ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم وينبوع العلم » .

ذكر الواحدى فى كتابه « أسباب النزول » أن الحسن والشعبى والقرطبى قالوا :

« ان عليا رضى الله عنه والعباس وطلحة بن شيبة افتخروا :

فقال طلحة : أنا صاحب البيت مفتاحه بيدى ولو شئت كنت فيه .

وقال العباس : وأنا صاحب السقاية والقائم عليها .

فقال على : لا أدرى لقد صليت ستة اشهر قبل الناس ، وأنا صاحب الجهاد فى سبيل الله ، فأنزل الله تعالى :

« أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله — الى أن قال — الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وانفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون » .

وقد تزوج على بن أبى طالب رضى الله عنه بالسيدة فاطمة الزهراء بأمر من الله جل جلاله . عن أنس رضى الله عنه قال :

« كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فغشيه الوحى فلما افاق قال لى : يا انس أتدرى ما جاء به جبريل عليه السلام من صاحب العرش عز وعلا ؟ قلت : بأبى انت وأمى ماجاءك به جبريل ؟ قال : قال لى ان الله تبارك وتعالى يأمرك أن تزوج فاطمة من على ؟ فانطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدتهم من الانصار . قال فانطلقت فدعوتهم فلما اخذوا مجالسهم حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم : الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته المطاع لسلطانه المرهوب اليه من عذابه ، النافذ امره فى أرضه وسمائه ، الذى خلق الخلق بقدرته ونيرهم بأحكامه واعزهم بدينه واكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ان الله عز وجل

جعل المصاهرة نسبا لاحقا وأمرا مفترضا وحكما عادلا وخيرا جامعا أوشج بها الأرحام والزمها الأنام فقال عز وجل :

« وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا » .

وأمر الله يجرى الى قضائه وقضاؤه يجرى الى قدره ، ولكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . ثم ان الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة من على وأشهدكم أنى زوجت فاطمة من على ، على أربعمائة مثقال فضة أن رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة فجمع الله شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما ». وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ».

وكان على رضى الله عنه غائبا فى حاجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد بعثه فيها ، ثم أمر لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بطبق فيه تمر . فوضع بين أيدينا . وأقبل على رضى الله عنه فتبسم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

ـ يا على ان الله أمرنى أن أزوجك فاطمة وانى قد زوجتكما على أربعمائة مثقال فضة ».

فقال على :

ـ رضيت يا رسول الله ».

وخر على بن أبى طالب ساجدا شاكرا الله . فلما رفع رأسه ، قال له الرسول صلى الله عليه وسلم :

ـ بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب ».

وعن ابن مردويه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى :

ـ تكلم خطيبا لنفسك ».

فقال :

ــ الحمد لله الذى قرب من حامديه ، ودنا من سائليه ، ووعد الجنــة من يتقيه ، وأنذ ابالنار من يعصيه ، نحمــده على قديم احسانه وأياديه حمد من يعلم انه خالقه وباريه ومميته ومحييه وسائله عن مساويه ونستعينه ونستهديه ونؤمن به ونستكفيه ونشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة تبلغه وترضيه وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم صلاة تزلفه وتحظيه وترفعه وتصطفيه ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجنى ابنته على خمسمائة درهم فأسألوا وأشهدوا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ــ قد زوجتك ابنتي فاطمة على ما زوجك الرحمن جل جلاله ، وقد رضيت بما رضى الله تعالى ، فنعم الختن أنت ، ونعم الصاحب أنت ، وكفاك برضا الله تعالى .

قال أنس رضى الله عنه :

ــ والله لقــــد أخرج منهما الكثير الطيب ، فقد رزق الأبوان الكريمان نصيبا صالحا من البنين والبنات ، الحسن والحسين ، ومحسن ، وزينب ، وأم كلثوم .

وقد روى أن زينب وأم كلثوم ســميتا باسم خالتيهما احيــاء لذكرى الراحلتين العزيزتين زينب وأم كلثوم اللتين فقدتهما السيدة فاطمة الزهراء .

وذكر فى رواية أخرى : لما ولدت زينب جاءت بها أمها الزهراء الى أبيها على بن أبى طالب رضى الله عنه وقالت له :

ــ سم هذه المولودة .

فقال لها :

ــ ما كنت لأسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان فى سفر له ..

ولما جاء النبى صلى الله عليه وسلم وسأله على عن اسمها قال :

ـ ما كنت لأسبق ربى تعالى .

فهبط جبريل يقـرأ على النبى السـلام من الله الجليـل ، وقال له :

ـ سم هذه المولودة زينب فقد اختار الله لها هذا الاسم (١) .

كان الرسول الكريم يحب الحسن والحسين حبا جما ، فقد روى عن أسامة بن زيد قال :

ـ طرقت باب رسول الله ذات ليـلة فى بعض الحاجة ، فخرج رسول الله وهو مشتمل على شىء لا أدرى ما هو ، فلما فرغت من حاجتى قلت : « ما هذا الذى أنت مشتمل عليه ؟ فكشفه فاذا حسن وحسين على وركيه وقال :

« هذان ابناى وابنا ابنتى ، اللهم انى أحبهما فأحبهما ، وأحب من يحبهما » .

ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما يخطب المسلمين فى المسجد ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصـان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله عن المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال :

ـ صدق الله : « انما أموالكم وأولادكم فتنة » نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما

وروى أن عليا وفاطمة دخلا على الرسول صلى الله عليه وسلم ومعهما الحسن والحسين ، فوضعهما فى حجره ، فقبلهما واعتنق عليا باحدى يديه وفاطمة بالأخرى فجعل عليهم خميصة سوداء وقال :

---

(١) جعفر النقدى : زينب الكبرى ، ص ٢١ .

ـ « اللهم اليك لا الى النار » :
وروى عنه أنه قال :
ـ « الحسن والحسين ريحانتاى من الدنيا » .
وقال ابن عباس :
كان عمر بن الخطاب يحب الحسن والحسين ويقدمهما على ولده ، ولقد قسم يوما فأعطى الحسن والحسين كل واحد منهما عشرة آلاف درهم ، فعاتبه ولده وقال :
ـ قد علمت سبقى فى الاسلام وهجرتى ، وأنت تفضل على هذين الغلامين ؟!
فقال عمر :
ـ ويحك يا عبد الله ، ائتنى بجد مثل جدهما ، وأب مثل أبيهما ، وأم مثل أمهما وجدة مثل جدتهما ، وخال مثل خالهما ، وخالة مثل خالاتهما وعم مثل عمهما ، وعمة مثل عمتهما : جدهما رسول الله ، وأبوهما على ، وأمهما فاطمة ، وجدتهما خديجة ، وخالهما ابراهيم ابن رسول الله ، وخالاتهما زينب ورقية وأم كلثوم بنات رسول الله ، وعمهما جعفر بن أبى طالب ، وعمتهما أم هانىء بنت أبى طالب ..

ويذكر ابن خلدون وجود الحسن والحسين فى الجيش الذى راح يغزو أفريقية بعد فتح مصر ، وأنهما دخلا المغرب الأقصى وجماعة من الصحابة مع الجيش الاسلامى الذى كان يقتحم تلك الأمصار فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وروى الطبرى أنهما كانا مع الجيش الذى غزا طبرستان ، وفى هذا ما يدل على أن الحسن والحسين رضى الله عنهما كانا يذودان دائما عن الاسلام ، وأنهما كانا يعرضان صدريهما للرماح فى سبيل اعلاء كلمة الحق ، ونشر راية التوحيد فى كل ركن من أركان المعمورة .

وقد لقيت السيدة زينب من جدها الأعظم كل عطف وحنان ومحبة ، وأسبغ عليها نور النبوة والحكمة ، ودرجت تلك الدرة اليتيمة ، في بيت الرسالة ، ورضعت لبان الوحي من ثدي الزهراء البتول ، وغذيت بغذاء الكرامة من كف ابن عم الرسول ، فنشأت نشأة قدسية ، وربيت تربية روحانية ، متجلببة جلابيب الجلال والعظمة ، مرتديه رداء العفاف والحشمة ، فالخمسة أصحاب العباءة هم الذين قاموا بتربيتها وتثقيفها وتهذيبها .

(حدث) يحيى المازني قال : كنت في جوار علي بن أبي طالب في المدينة مدة مديدة وبالقرب من البيت الذي تسكنه زينب ابنته فلا والله ما رأيت لها شخصا ، ولا سمعت لها صوتا ، وكانت اذا أرادت الخروج لزيارة جدها رسول الله صلى الله عليه وسلم تخرج ليلا والحسن عن يمينها والحسين عن شمالها وعلى بن أبي طالب رضي الله عنه أمامها ، فاذا قربت من القبر الشريف سبقها على ابن أبي طالب فأخمد ضوء القناديل . فسأله الحسن مرة عن ذلك فقال :

ــ أخشى أن ينظر أحد الى شخص أختك زينب .

ومما يذكر عنها للدلالة على شدة حبها واخلاصها لله سبحانه وتعالى أنها وهي في طفولتها كانت جالسة في حجر أبيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يلاطفها .

فقال لها :

ــ قولي ، واحد .

فقالت : واحد .

فقال لها :

ــ قولي ، اثنين . فسكتت .

فقال علي :

ــ تكلمي يا قرة عيني

فقالت رضي الله عنها :

ــ يا أبتاه ما أطيق ان أقول اثنين بلسان أجريته بالواحد .

وسألت اباها ذات يوم قالت :

ــ أتحبنا يا أبتاه ؟

فأجاب رضي الله عنه :

ــ وكيف لا احبكم وانتم ثمرة فؤادى ؟

فقالت :

ــ يا أبتاه ان الحب لله تعالى والشفقة لنا .

ان المتأمل فى هذا الكلام الصادر عنها وهى طفلة يرى فيه علما جما ، ويتبين له مقدار منزلتها فى العلم والمعرفة .

* * *

وقد فقدت السيدة زينب جدها صلى الله عليه وسلم وهى بنت خمس ، وفقدت أمها الزهراء بعد ذلك بشهور قليلة لا تتجاوز الستة ، فحزنت لفقدهما حزنا عميقا جعلها أنضج ادراكا وأرهف حسا ، فتحملت وهى صبية صغيرة ، عبء ادارة بيت أبيها ورعاية شئون أخواتها .

العقيلة الطاهرة

شبت زينب الطــاهرة عن الطوق ، ونما عودها أفضل نمــاء ، وزكا نباتها الطيب فى روضة النبوة ، ودوحة الرسالة ، وجملها ربها بدنا وروحا ، وطبعا وخلقا ، وعندما بلغت مبلغ الزواج تهافت عليها الطلاب من شباب هاشم وقريش ، ذوى الرفعة والشرف ، لكن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، اختار لفتاته ، عبد الله بن جعفر .

أبوه جعفر بن أبى طالب ، ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخو على بن أبى طالب لأبويه ، وكان أشبه الناس بالرسول الكريم خلقا وخلقا .

وصفه أبو هريرة فقال :

« ما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا وطىء التراب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جعفر بن أبى طالب » .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يكنيه « أبا المساكين » .

هاجر بدينه الى الحبشة ابان اضطهاد الأرستقراطية القرشية لدعوة الحق الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند ربه جل جلاله ، ثم رجع مع من رجع من المسلمين ، وصادف وصوله الى المدينة المنورة فتح خيبر فالتزمه الرسول ، وجعل يقبله بين عينيه ويقول :

« ما أدرى بأيهما أنا أشد فرحا ، بقدوم جعفر أم بفتح خيبر ؟ »

وأنزله الرسول الأعظم الى جنب المسجد .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

— « لم يكن قبلى نبى الا وقد أعطى سبعة رفقاء نجباء وزراء ، وانى أعطيت أربعـــة عشر : حمـزة ، وجعفر ، وعـلى ، وحسن ، وحسين ، وأبو بكر ، وعمر ، والمقداد ، وحذيفة ، وسلمان ، وعمار ، وبلال (١) » .

سار مع كتيبة الايمان التى توجهت الى بلاد الروم فى السنة الثامنة من الهجرة ، وقد جعل الرسول لواء ذلك الجيش لزيد بن حارثة ، فان أصيب ، فجعفر بن أبى طالب على الناس .

ومضت كتيبة الايمان حتى اذا كانت بتخوم البلقـاء ، لقيتهم جيوش « هرقل » فانحاز المسلمون الى قرية « مؤتة » ودارت معركة رهيبة ، قاتل « زيد » براية الرسول الكريم حتى شاط (٢) فى رماح القوم ، ثم أخذها جعفر بن ابى طالب ، فقاتل بها حتى اذا الحمه القتال عن فرس له شقراء فعقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل ، فكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر فى الاسلام فرسه .

وروى أن الرسول الأعظم لما اتاه نعى جعفر ، دخل على امرأته أسماء بنت عميس ، فعزاها فيه ، ودخلت فاطمة وهى تبكى وتقول :

— واعماه !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— على مثل جعفر فلتبك البواكى .

ودخله من ذلك حزن شديد حتى أتاه جبريل ، فأخبره أن الله قد جعل لجعفر جناحين مضرجين بالدم يطير بهما مع الملائكة فى الجنة .

---

(١) هؤلاء اثنا عشر ، ويبقى اثنان هما : عبد الله بن مسعود وابو ذر الغفارى رضى الله عنهما (أسد الغابة ج ١ ، طبعة دار الشعب) .

(٢) يقال : شاط الرجل ، اذا سال دمه فهلك .

وكان عبد الله بن جعفر أول مولود ولد فى الاســـلام فى هجرة الحبشة ، وبايع الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ابن سبع سنين ، وزاد حبه له وعطفه عليه بعد موت أبيه جعفر ، حتى أنه مسح على راسه وقال :

ـ « اللهم اخلف جعفـرا فى أهله وبارك لعبد الله فى صفقـة يمينه ـ قالها ثلاث ـ وفيه ـ وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة » .

كان عبد الله كريما جوادا حليما ، يسمى بحر الجود ، وقـد وصفه ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فقال :

« كان لله ذكورا ، ولنعمائه شكورا ، وعن الخنا زجورا ، جواد كريم ، وسيد حليم ، ان ابتـدأ أصاب ، وان سـئل أجاب ، غير حصر ولا هياب ، ولا فحاش عيـاب ، حل من قريش فى كريم النصاب كالهزبر الضرغام ، الجرىء المقـدام ، ليس يدعى لدعى ، ولايدنو لدنى » .

ومما يروى عن جوده وكرمه ، ان امرأة سألته شـيئا فأعطاها مالا كثيرا ، فقيل له :

ـ انها لا تعرفك وكان يرضيها اليسير من المال .

فقال :

ـ ان كان يرضيها اليسير ، فانى لا ارضى الا بالكثير ، وان كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى .

ويروى أن عبد الله بن جعفر أسلف الزبير بن العوام ألف ألف درهم ، فلما قتل الزبير قال ابنه عبد الله لعبد الله بن جعفر :

ـ انى وجدت فى كتب أبى ان له عليك ألف ألف درهم .

فقال :

ـ هو صادق فاقبضها اذا شئت .

ثم لقيه ، فقال :

ـ يا أبا جعفر ، وهمت ، المال لك عليه .
قال :
ـ فهو له .
قال :
ـ لا اريد ذاك .
قال عبد الله :
ـ فاختر ان شئت فهو له ، وان كرهت ذلك فله فيه نظرة ما شئت ، وان لم ترد ذلك فبعني من ماله ما شئت .
قال :
ـ أبيعك ولكن اقوم .
فقوم الأموال ثم اتاه فقال :
ـ أحب أن لا يحضرني واياك احد .
قال : فانطلق . فمضى معه فأعطاه حرابا وشيئا لا عمارة فيه وقومه عليه ، حتى اذا فرغ قال عبد الله بن جعفر لغلامه :
ـ ألق لي في هذا الموضع مصلى .
فألقى له في اغلظ موضع من تلك المواضع مصلى ، فصلى ركعتين وسجد فأطال السجود يدعو ، فلما قضى ما أراد من الدعاء قال لغلامه :
ـ احفر في موضع سجودي ، فحفر . فاذا عين قد انبطها ، فقال له ابن الزبير :
ـ اقلني .
فقال :
ـ أما دعائي واجابة الله اياي فلا اقيلك ، فصار ما أخذ منه اعمر مما في يد ابن الزبير .

***

عرف الناس مكانة عبد الله بن جعفر من البيت النبوى الكريم ، فكانوا يلتمسون لديه الوسيلة الى الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، والى ولديه الحسن والحسين .

روى أبو الفرج بسنده أن الامام الحسن كان قد ارسل الى السيدة عائشة رضى الله عنها أن تأذن له أن يدفن مع النبى صلى الله عليه وسلم . فقالت : نعم ما كان بقى الا موضع قبر واحد ، فلما سمعت بذلك بنو أمية قيل ان مروان قال :

ـ يا رب أيدفن عثمان فى أقصى المدينة ويدفن الحسن مع رسـول الله عليه الصـلاة والسـلام لا يكون ذلك أبدا وأنا أحمل السيف .

وكادت الفتنة أن تقع بين بنى هاشم وبنى أمية ، لولا كلمة من عبد الله بن جعفر لابن عمه الحسين ، قال :

ـ عزمت عليك بحقى ألا تكلم بكلمة .

ومضى بابن عمه « الحسن » الى البقيع ، حيث ثوت أمه السيدة فاطمة الزهراء .

ولما مات سنة ثمانين هجرية ، شـهد جنازته أهل المدينـة كلهم ، ورثاه الكثيرون ومنهم ابان بن عثمان أمير المدينة الذى وقف على حافة قبره ، ودموعه تسيل على خديه ، وهو يقول :

ـ كنت والله خيرا لا شر فيك ، وكنت والله شريفا وأصلا برا .

وقال هشـام المخزومى : أجمع أهل الحجاز والبصرة والكوفة على أنهم لم يسـمعوا بيتين أحسن مما كتب على قبر عبـد الله وهما :

مقيم الى أن يبعث الله خلقـه
لقـاؤك لا يرجى وأنت قريب
تزيد بلى فى كل يوم وليـلة
وتنسى كمـا تبلى وأنت حبيب

هذا هو الذى اختاره الامام على بن أبى طالب زوجا لابنته الطاهرة زينب ، التى بلغت من تعلق أبيهـا بها ، أن ابقاها معـه ، حتى اذا ولى أمر المسلمين وانتقل الى الكوفة ، انتقلت وزوجهـا فعاشا فى مقر الخلافة فى رعاية أمير المؤمنين .

وقد ولدت السيدة زينب رضى الله عنها لابن عمها أربعة بنين: عليا ومحمدا ، وعونا الأكبر ، وعباسا ، كما ولدت له فتاتين : أم كلثوم وأم عبد الله .

وفى على المعروف « الزينبى » الكثرة والعدد ، وفى ذريته الذيل الطويل ، والسلالة الباقيـة ـ وهو أحـد أرحاء أبى طالب الثلاثة :

الأولى : بنو موسى الجون بن عبد الله المحصن بن الحسن المثنى بن الامام الحسن .

الثانية : بنو الامام موسى الكاظم .

الثالثة : بنو جعفـر السـيد بن ابراهيم بن محمـد بن على الزينبى .

جاء فى « تاج العروس » : « والزينبون بطن من ولد على الزينبى ابن عبد الله الجواد بن جعفر الطيار ، نسبة الى أمه زينب بنت سيدنا على رضى الله عنه ، وأمها فاطمة رضى الله عنها وولد على هذا أحـد أرحاء آل أبى طالب الثلاثة ، أعقب من ابنـه محمـد والحسن وعيسى ويعقوب ، وأبو الحسن على بن طلحة بن على بن محمد الزينبى تولى الخطابة والنقابة بعد أبيه فى زمن المستنجد وتوفى سنة ٥٦١ هـ » .

وأما عون الأكبر فهو من شهداء الطف قتل فى حمـلة آل أبى طالب وهو مدفون مع آل أبى طالب فى الحفيرة .

أما أم كلثوم فقد زوجها الحسين رضى الله عنه من ابن عمها القاسم بن محمد بن جعفر الطيار .

ويروى المؤرخون انه لما طلب معاوية بن ابى سفيان من مروان ابن الحكم ـ واليه على المدينة ـ ان يخطب ليزيد ام كلثوم ، قال ابوها عبد الله بن جعفر :

ـ ان امرها ليس الى انما هو الى الحسين خالها .

فأخبر الحسين بذلك فقال :

ـ استخير الله تعالى .. اللهم وفق هذه الجارية رضاك من آل محمد .

فلما اجتمع الناس فى مسجد رسول الله اقبل مروان حتى جلس الى الحسين وقال :

ـ ان امير المؤمنين ـ يعنى معاوية ـ امرنى بذلك ، وان اجعل مهرها حكم أبيها بالغا ما بلغ مع صلح بين هذين الحيين ، مع قضاء دينه ، واعلم ان من يغبطكم بيزيد اكثر من يغبطه بكم ، والعجب كيف يستمهر يزيد وهو كفؤ من لا كفؤ له وبوجهه يستسقى الغمام فرد خيرا يا ابا عبد الله .

فقال الحسين رضى الله عنه :

ـ الحمد لله الذى اختارنا لنفسه ، وارتضانا لدينه واصطفانا على خلقه (الى أن قال) :

ـ يا مروان قد قلت فسمعنا ، اما قولك مهرها حكم ابيها بالغا ما بلغ فلعمرى لو اردنا ذلك ما عدونا سنة رسول الله فى بناته ، ونسائه واهل بيته وهو اثنتا عشرة أوقية . وأما قولك مع قضاء دين أبيها فمتى كن نساؤنا يقضين عنا ديوننا . وأما صلح ما بين هذين الحيين فانا قوم عاديناكم فى الله ولم نكن نصالحكم للدنيا فلعمرى لقد أعى النسب فكيف السبب ؟!

وأما قولك والعجب فكيف يستمهر يزيد فقد استمهر من هو خير من يزيد ومن أبى يزيد ومن جد يزيد .

وأما قولك ان يزيد كفؤ من لا كفؤ له فمن كان كفؤه قبل اليوم فهو كفؤه اليوم ما زادته امارته فى الكفاءة شيئا .

وأما قولك وجهــه يستسقى به الغمام فانما كان ذلك وجه رسول الله .

وأما قولك من يغبطنا به أكثر مما يغبطه منا فانما يغبطنا به اهل الجهل ويغبطه بنا أهل العقل .. ثم قال .. اشهدوا جميعــا انى قد زوجت أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر من ابن عمها القاسم ابن محمد بن جعفر على أربعمائة وثمانين درهما .

فتغير وجه مروان وقال :

ــ اغدرا يا حسين .

فقال الحسين :

ــ أنت بدأت . خطب ابو محمد الحسن بن على عائشة بنت عثمان بن عفان فاجتمعنا لذلك ، فتكلمت أنت وزوجتها عبد الله ابن الزبير .

فقال مروان :

ــ ما كان ذاك !

فالتفت الحسين الى محمد بن حاطب ، وكان حاضرا تلك الغدرة ، وقال :

ــ انشدك الله يا ابن حاطب ، أكان ذلك ؟

فقال :

ــ اللهم نعم .

فسكت مروان ، وبلغ الخبر معاوية فى دمشق فبات له حيران !!

جهادها مع الحسين

بدأ الحسين رضى الله عنه جهاده فى سنة ستين من الهجرة ، عندما تولى يزيد بن معاوية أمر المسلمين بعهد من أبيه ، فقد بعث أهل الكوفة برسائلهم الى الحسين يبلغونه أن يزيد غير خليق بالخلافة وانهم يرفضون بيعته ، ويلحون على الحسين بالحضور اليهم ليبايعوه ، فأرسل الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب الى الكوفة ليتبين حال أهلها ويتحقق من أمرهم . وما أن وصل مسلم الى الكوفة حتى استقبله أهلها استقبالا رائعا وصاروا يجتمعون به ويترددون عليه ، وبايعه منهم للحسين نحو اثنى عشر ألفا . فبعث مسلم الى الحسين يبلغه ذلك ويطلب منه القدوم الى الكوفة لاتمام البيعة له .

فعزم الحسين على اجابة الدعوة وتجهز للرحيل الى الكوفة ، وبارح مكة يوم الثلاثاء الثامن من ذى الحجة سنة ستين من الهجرة ، واستصحب معه فى الرحلة اثنين وسبعين من أصحابه وأهل بيته .

وقبل أن يصل الحسين ومن معه الى الكوفة اغتيل فيها مسلم ابن عقيل خيانة وغدرا .

وحينما وصل الحسين وصحبه الى كربلاء وجدوا فى انتظارهم جيشا ضخما لحصارهم والاحاطة بهم .

جمع الحسين أصحابه وقال :

« اثنى على الله أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء ، اللهم انى أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة ، وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة وعلمتنا القرآن وفقهتنا فى الدين فاجعلنا لك من الشاكرين ، أما بعد :

فانى لا أعلم أصحابا أوفى ولا خيرا من أصحابى ، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتى ، فجزاكم الله جميعا خيرا ، فقد بررتم وعاونتم ، والقوم لا يريدون غيرى أحدا وانى لأظن

يومنا من هؤلاء الأعداء غدا ، وانى قد اذنت لكم جميعا فانطلقوا فى حل ليس عليكم منى ذمام ، هذا الليل قد غشيكم فتفرقوا فى سواده وانجوا بأنفسكم » .

فقال له اخوته وأبناؤه وبنو أخيه وابنا عبد الله بن جعفر :

ـ لم نفعل هذا لنبقى بعدك لا أرانا الله ذلك أبدا . بدأهم بذلك العباس بن على واتبعه الجماعة فتكلموا بمثله وقالوا :

ـ معاذ الله ، وما نقول للناس اذا رجعنا اليهم ؟ نقول تركنا سيدنا وبنى عمومتنا خير الأعمام ، ولم نرم معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برمح ، ولم نضرب بالسيف ، ولا ندرى ما صنعوا ، لا والله لا نفعل نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ونقاتل معك حتى نرد موردك ، فقبح الله العيش بعدك .

وقام اليه مسلمة بن عوسجة الأسدى فقال :

ـ أنحن نتخلى عنك ولم نعذر الى الله فى أداء حقك ، أما والله لا أفارقك حتى أكسر فى صدورهم رمحى وأضربهم بسيفى ما ثبت قائمه بيدى ، ولو لم يكن معى سلاحى لقذفتهم بالحجارة دونك ، حتى أموت معك .

وتكلم أصحابه بنحو هذا .

وكان على بن الحسين تلك العشية مريضا تمرضه عمته السيدة زينب فسمع أباه وهو فى خباء له وعنده جوين مولى ابى ذر الغفارى يعالج سيفه ويصلحه والحسين يقول :

يا دهر اف لك من خليل
كم لك بالاشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل
والدهر لا يقنع بالبديل
وانما الأمر الى الجليل
وكل حي ، سالك السبيل

واعادها مرتين أو ثلاثا فأدرك ما اعتزمه والده ولزم السكوت ،

وسمعته زينب بنت الزهراء فلم تملك أن وثبت تجر ثوبها حتى انتهت اليه ونادت :

ـــ واثكلاه ! ليت الموت أعــدمنى الحيــاة اليوم ، ماتت أمى فاطمــة ، وعلى أبى ، وحسن أخى ، يا خليفة المــاضى ، وثمــال الباقى .

فنظر اليها الحسين وقال :

ـــ يا أخية لا يذهبن بحلمك الشيطان .

قالت :

ـــ بأبى أنت وامى يا أبا عبد الله ، نفسى فداك !

قال الحسين :

ـــ لو ترك القطا ليلا لنام .

فقالت :

ـــ واويلتاه أفتغصبك نفسك اغتصــابا فذلك أقرح لقلبى واشد على نفسى وأطول لحزنى ، وخرت مغشيا عليها .

فقام اليها الحسين فصب الماء على وجهها ، وقال :

ـــ اتقى الله وتعزى بعزاء الله ، واعلمى أن أهل الأرض يموتون واهل السماء لا يبقون ، وأن كل شيء هالك الا وجه الله ، ابى خير منى ، وامى خير منى ، وأخى خير منى ، ولى ولكل مسلم برسول الله صلى الله عليه وسلم اسوة . فعزاها بهذا ونحوه ، وقال لها :

ـــ يا أخية انى أقسم عليك لا تشقى على جيبا . ولا تخمشى وجها ، ولا تدعى على بالويل والثبور ، ان أنا هلكت .

ثم خرج الى أصحابه فأمرهم أن يقربوا بيوتهم من بعض وأن يدخــلوا الأطنــاب بعضهــا فى بعض ، ويكونوا بين يدى البيــوت فيستقبلون القوم من وجه واحد ، والبيوت عن يمينهم وعن شمالهم ومن ورائهم ، ورجع الى مكانه فقام الليــل كله يصلى ويستغفر ، وقام أصحابه كذلك يصلون ويستغفرون ويدعون ، وخيول حرس عدوهم تدور من ورائهم ، تحرسهم حتى لا يفر أحد منهم ، وكأنمــا كان يريد القوم قتلهم كلهم ، والقضاء عليهم جميعهم .

وفى صباح اليـوم التالى دارت المعـركة الرهيبة بين الآلاف والعشرات ..!

وجعل أصحاب الحسين رضى الله عنه ، يتقدمون رجـلا بعد رجل فقاتلوهم قتالا مرا . ولما استشهد أصحاب الحسين ، برز شباب بنى هاشم بدورهم ، يدافعون عن والدهم وعمهم وابن عمهم ونسيبهم ، بقلوبهم وصدورهم ، وكان على بن الحسين رضى الله عنه ، من أصبح الناس وجها ، وأكملهم أدبا ، فتقدم للقتال قبل غيره ، وهو ما يزال فى التاسعة عشرة من عمره ، فشد على الجيش وهو يقول :

أنا على بن الحسين بن على   نحن ورب البيت أولى بالنبى
تالله لا يحكم فينا ابن الدعى

فعل ذلك مرارا ، يحمل فيرتد من أمامه من شدة حملته حتى صدمه مرة بن منقذ العبـدى فطعنه فصرعه ، فلما رآه الحسين قال :

ــ قتل الله قوما قتلوك يا بنى ! ما أجرأهم على الرحمن ، وعلى انتهاك حرمة الرسول ، على الدنيا بعدك العفاء .

وأقبل الحسين ، فقال :

ــ احملوا أخاكم . فحملوه من مكانه حتى وضعوه بين يدى الفسطاط الذى كانوا يقاتلون أمامه . واندفعت من خيام النساء امرأة كأنها الشمس طالعة ، تنادى فى جزع :

ــ يا أخياه ! ويا ابن أخياه !

وأكبت عليه ، فجـاءها الحسين فأخـذ بيـدها وردها الى الفسطاط .

فسأل عنها من لا يعرفها ، فقيل :

ــ هذه زينب ابنة فاطمة بنت رسول الله .

وتتابعت قتلى بنى هاشم فسقط عبد الله بن مسلم بن عقيل ، وعون بن عبد الله بن جعفر ، ومحمد بن عبد الله بن جعفر ، وعبد الرحمن بن عقيل بن ابى طالب ، وجعفر بن عقيل ..

ثم خرج القاسم بن الحسن بن على وبيده السيف ، وهو غلام كأن وجهه شقة قمر ، فحمل عليه عمرو بن سعد بن نفيل الأزدى فضرب رأسه بالسيف ، فسقط القاسم الى الأرض لوجهه وهو يقول :

— يا عماه .

فانقض الحسين عليه كالصقر ثم شد شدة ليث أغضب ، وضرب عمروا بالسيف ، فاتقاه بالساعد فقطعها من المرفق .

وحملت خيل الكوفة ليستنقذوا عمروا فاستقبلته بصدورها وجالت عليه بفرسانها فوطئته حتى مات .

وانجلت الغبرة والحسين واقف على رأس القاسم ، وهو يفحص برجليه ، والحسين يقول :

— بعدا لقوم قتلوك ، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك !

ثم قال :

— أعز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك ، أو يجيبك ثم لا ينفعك !

ثم احتمله على صدره حتى ألقاه مع ابنه على ومن قتل معه من أهل بيته ..

* * *

رجع الحسين الى فسطاطه .. فتقدم اليه شمر بن ذى الجوشن برجاله ، وهو يحرضهم عليه .. واقبل الى الحسين عبد الله بن الحسن بن على وهو غلام لم يراهق فقام الى جنبه وقد أهوى بحر بن كعب الى الحسين بالسيف فقال الغلام :

— يا ابن الخبيثة اتقتل عمى ؟

فضربه بالسيف فألقاه الغلام بيده ، فقطعها الى الجلد ، فصرخ الغلام فاعتنقه الحسين وقال له :

ـــ يا ابن أخي ؛ اصبر على ما نزل بك ، واحتسب فى ذلك الخير ، فان الله يلحقك بآبائك الصالحين .

ورفع الحسين بصره الى السماء يناجى الله قائلا :

ـــ اللهم أمسك عنهم قطر السماء ، وامنعهم بركات الأرض ، اللهم فان متعتهم الى حين ففرقهم فرقا ، واجعلهم طرائق قددا ، ولا ترضي عنهم الولاة أبدا ، فانهم دعونا لينصرونا ، فعدوا علينا فقتلونا .

ثم قاتل من أمامه فانكشفوا عنه وبقى الحسين فى ثلاثة رهط أو أربعة .

ولما قتلوا وبقى الحسين وحده ، وقد اثخن بالجراح فى رأسه وبدنه ، حمل الناس عليه عن يمينه وشماله ، فحمل على الذين عن يمينه ، فتفرقوا ، ثم حمل على الذين عن يساره فتفرقوا ، فما رئى رجل قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشا ، ولا أمضى جنانا ، ولا أجرأ مقدما منه ، اذ كانت الرجالة لتنكشف عن يمينه وشماله ، كلما شد عليها . وبينما هو كذلك اذ خرجت زينب وهى تقول :

ـــ ليت السماء انطبقت على الأرض . ونظرت الى عمر بن سعد وقالت :

ـــ يا عمر ، أيقتل أبو عبد الله وانت تنظر ؟

فدمعت عيناه حتى سالت دموعه على خديه ولحيته ؛ وصرف وجهه عنها .

والحسين يقاتل قتال الفارس الشجاع ، يتقى الرمية ، ويشد على الخيل وهو يقول :

ـــ أعلى قتلى تجتمعون ! أما والله لا تقتلون بعدى عبـــدا من عباد الله اسخط عليكم لقتله منى ؛ وايم الله انى لأرجو أن يكرمنى الله بهوانكم ، ثم ينتقم لى منكم من حيث لا تشعرون ، أما والله أن لو قد قتلتمونى لقـــد ألقى الله بأســـكم بينكم ، وسفك دماءكم ، ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم ».

ومكث طويلا من النهـــار ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا ، ولكنهم كان يتقى بعضهم ببعض ، ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء ، فلما رأى ذلك شمر بن ذى الجوشن استدعى الفرسان فصاروا فى ظهور الرجالة وأمر الرماة أن يرموه ، فرشقوه بالسهام فأحجم عنهم فوقفوا بازائه ، فنادى شمر فى الناس :

ـــ ويحكم ! ماذا تنظرون بالرجل ! اقتلوه ثكلتكم امهاتكم !

فحملوا عليه من كل جانب ، وضربه زرعة بن شريك التميمى على كفه اليسرى فقطعها ، وضربه آخر على عاتقه فكبا منها لوجهه فانصرفوا عنه ، وهو يقوم ويكبو ، وحمل عليه فى تلك الحال سنان ابن أنس النخعى ، قطعنـــه بالرمح فصرعه ، وبدر اليه خولى بن يزيد الأصبحى فنزل ليحتز رأسه ، فأرعد .

فقال له سنان : فت الله فى عضدك ، ونزل اليه وذبحه ، واحتز رأسه ثم دفعه الى خولى وسلب القوم الحسين ما كان عليه وتركوه مسجى فى العراء .

وانتهب الناس حلله وأبله واثقاله ومتاعه ، وسلبوا نساءه ، حتى ان كانت المـــرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها ؛ حتى تغلب عليه ، فيؤخذ منها . ووجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية ».

* * *

تحرك موكب الأسرى والسبايا من آل البيت النبوى الكريم ..

وما كاد الركب يمر على ميدان المعركة ، حتى صاح النساء ، ولطمن خدودهن ، وصاحت زينب :

ـــ يا محمــداه صلى عليك ملائكة الســماء ، هذا الحسين بالعراء مرمل بالدماء مقطع الأعضاء ، يا محمداه هذه بناتك سبايا وذريتك مقتلة تسفى عليها الصبا .

فأبكت كل عدو وصديق .

ودخل الموكب الحزين الكوفة ..

وتجمع أهل الكوفة يبكون ، فقالت لهم زينب ، مبكتة مؤدبة ، مقومة مهذبة :

ـــ يا أهل الكوفة ؟

أتبكون ؟! فلا سكنت العبرة ، ولا هدأت الرنة !

انما مثلكم مثل التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون ايمانكم دخلا بينكم ، الا ساء ما تزرون !

اى والله ، فابكوا كثيرا ، واضحكوا قليلا ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها ، فلن ترحضوها (١) بغسل أبدا .

وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومدار حجتكم ، ومنار محجتكم ، وهو سيد شباب أهل الجنة !

لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء !

أتعجبون لو أمطرت دما ؟

الا ســاء ما سولت لكم أنفســكم ، أن سخط الله عليكم وفى العذاب أنتم خالدون . أتدرون أى كبد فريتم ، وأى دم سفكتم ، وأى كريمة أبرزتم ، لقد جئتم شيئا أدا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا .

ضج الناس بالبكاء والعويل ، وفزعوا من هول ما سمعوا ، وسقط فى أيديهم ، وبلغ بهم الأسف مبلغه ، ووجفت القلوب ، واقشعرت الأجساد من هول تلك المحنة الدهماء .

* * *

(١) لن ترحضوها : لن تغسلوها أو تطهروها .

وعندما ادخل أهل البيت النبوى الكريم الى حيث عبيد الله بن زياد والى الكوفة ، تذكرت السيدة زينب رضى الله عنها تلك القاعة التى كان يجلس فيها ـ من قبل ـ أبوها الامام على بن ابى طالب ، دخلتها هذه المرة وقلبها متصدع مما مر بها من أحداث جسام ، ولكنها لاذت بكل كبريائها وعزة نفسها وكرامة محتدها ، معتزة بعلو حسبها ونسبها الشريف ، ملتفة بجلال النبوة ، وجلست منتحية ناحية من القاعة تحف بها اماؤها . فتساءل ابن زياد عن هذه المنحازة وحدها ومعها نساؤها .

فقال بعض امائها :

ـ هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت الامام على كرم الله وجهه .

فقال متشفيا فيها :

ـ الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم واكذب أحدوثتكم .

فردت عليه السيدة زينب بكل اباء وشمم :

ـ الحمد لله الذى اكرمنا بنبيه صلى الله عليه وسلم وطهرنا من الرجس تطهيرا ، انما يفتضح الفاجر ويكذب الفاسق وهو غيرنا .

فلم يصبر ابن زياد على قولها ، بل رد عليها قائلا :

ـ كيف رأيت صنع الله فى اهل بيتك واخيك ؟

وهنا تتجلى أسمى معانى الايمان العميق والصبر الجميل والشجاعة النادرة فى قولها له :

ـ ما رأيت الا خيرا . هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم ، فانظر لمن الفلح يومئذ ، ثكلتك أمك يا ابن مرجانة !

فأثار هذا الرد الحازم حفيظة ابن زياد ، فقال لها وهو فى أشد حالات الغيظ :

ـــ لقد شفى الله قلبى من طاغيتك الحسين والعصاة المردة من أهل بيتك .

فقالت له :

ـــ لعمرى لقد قتلت كهلى وقطعت فرعى واجتثثت أصلى فان كان فى هذا شفاؤك فلقد اشتفيت .

اثار هـذا النقاش بينها وبين ابن زياد حماس وغـيرة على بن الحسين رضى الله عنهما على عمته ، فانبرى صائحا بابن زياد :

ـــ الى كم تهتك عمتى بين من يعرفها ومن لا يعرفها ؟

فالتفت اليه وقال : من أنت ؟

فرد عليه فى ثبات :

ـــ انا على بن الحسين .

قال ابن زياد :

ـــ اليس الله قتل على بن الحسين ؟

قال على :

ـــ كان لى اخ يسمى عليا قتله الناس بأسيافهم .

فقال ابن زياد :

ـــ بل قتله الله .

قال على فى ايمان عميق :

ـــ « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها » .

فيسأله ابن زياد فى دهشة وعجب :

ـــ او بك جراة على جوابى وفيك بقية للرد ؟ ثم صاح بغلمانه أن يذهبوا به فيضربوا عنقه .

فتعلقت به عمته السيدة زينب وقالت :

ـــ يا ابن زياد حسبك من دمائنا ما ارتويت وسفكت ، وهل ابقيت أحدا غير هذا ؟ والله لا افارقه فان قتلته فاقتلنى معه .

وقال على رضى الله عنه :

ـــ اسكتى يا عمة حتى أكلمه . والتفت اليه قائلا :

ـــ أبالقتل تهددنى ؟ أما علمت أن القتل لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة ؟

فنظر ابن زياد اليها فترة ثم قال :

ـــ عجبا للرحم ، والله انى لأظنها ودت لو أنى قتلتهـــا معه ، دعوه فانى أراه لما به مشغولا .

* * *

ولما أصبح ابن زياد أمر برأس الحسين رضى الله عنه فطيف به على رمح فى الكوفة ، ثم أنفذوه مع رءوس أصحـــابه الى يزيد بن معاوية ، وأمر بنسائه وصبيانه ، فجهزوا وحملوا على الأقتاب ، وسرح بهم الى دمشق ، وعلى بن الحسين مقيد مغلول اليدين .

فلما مثلوا بين يدى يزيد وأمامه الرأس الشريف ، تطاولت فاطمة وسكينة ابنتا الحسين رضى الله عنهم ينظران الى الرأس والدموع هاطلة ، والأفئدة واجمة ، والقلوب مضطربة ، وأحس يزيد بذلك ؛ فاضطرب وجعـــل يتطـــاول بدوره ليســـتر الرأس الشريف عنهما .

وكان فى مجلس يزيد رجل شامى ضخم الجثة أحمر الوجه ، ظل يحدق فى فاطمة بنت على ـــ وكانت شابة وضيئة ـــ ويلتهمها بنظرات جشعة ، فأجفلت منه خائفة مشمئزة ، وقام الرجل الى يزيد فقال :

ـــ هب لى هذه .

خافت فاطمة ، وأخذت بثياب أختهـــا زينب ، فقالت السيدة زينب :

ـــ كذبت والله ولؤمت ! ما ذلك لك وله .

فغضب يزيد ، وقال :

ــ كذبت والله ، ان ذلك لى ، ولو شئت أن أفعله لفعلت .
قالت زينب :
ــ كلا والله ، ما جعل الله ذلك لك الا أن تخرج من ملتنا ، وتدين بغير ديننا .
فاستطار يزيد غضبا وقال :
ــ اياى تستقبلين بهذا ! انما خرج من الدين أبوك وأخوك .
فقالت زينب :
ــ بدين الله ودين أبى ودين أخى وجدى اهتديت انت وابوك وجدك .
قال يزيد :
ــ كذبت يا عدوة الله ؟!
قالت زينب :
ــ أنت أمير مسلط ، تشتم ظالما ، وتقهر بسلطانك .
فاستحى يزيد وسكت عنها .
وعاد الشامى يقول :
ــ يا امير المؤمنين ، هب لى هذه الجارية .
فقال يزيد :
ــ اغرب ، وهب الله لك حتفا قاضيا !

* * *

كشف يزيد عن رءوس الشهداء ، وانثنى يعبث بقضيب فى يده ، بثنايا الحسين رضى الله عنه ، ويقول شامتا متشفيا :

يا غراب البين اسمعت ، فقل
انما تذكـر شيئا قـد فعـل
ليت أشياخي ببـدر شـهدوا
جزع « الخزرج » من وقع الأسل
لأهـلوا واسـتهلوا فـرحا
ثم قالوا يا « يزيد » لا تشـل

فانبرت له السيدة زينب في ثقة وايمان ، وثبات جنان ، وجعلت تردعه وتزجره ، وتلطم غروره بهذه اللطمات ، قالت :

« الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين ، صدق الله سبحانه حيث يقول :

(ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون(١)) .

أظننت يا يزيد حين أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء ، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى ، أن بنا هوانا على الله وبك عليه كرامة ، وأن ذلك لعظيم خطرك عنده ، فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك تضرب أصدريك (٢) فرحا ، وتنفض مذرويك (٣) مرحا جذلان مسرورا ، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة ، والأمور متسقة ، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا ، فمهلا مهلا أنسيت قول الله تعالى :

(ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين(٤)) .

أمن العدل يا ابن الطلقاء (٥) تخديرك حرائرك واماءك وسوقك بنات رسول الله سبايا قد هتكت ستورهن ، وأبديت وجوههن ، تحدو بهن الأعداء من بلد الى بلد ، ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل ، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد ، والدني والشريف ، ليس معهن من رجالهن ولي ، ولا من حماتهن حمي ، وكيف يرتجى

---

(١) سورة الروم : ١٠ .

(٢) منكبيك .

(٣) المذوران : جانبا الاليتين ولا واحد لها ، أي باغيا يتهدد .

(٤) سورة آل عمران : ١٧٨ .

(٥) الطلقاء : هم آباء يزيد الذين اطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

مراقبة من لفظ فوه أكباد الأذكياء ونبت لحمه من دماء الشهداء ؟ وكيف يستبطأ فى بغضنا أهل البيت من نظر الينا بالشنف والشنآن ، والأحن والأضغان ، ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم :

لاهلوا واستهلوا فرحا

ثم قالوا يا يزيد لا تشل

منحنيا على ثنايا أبى عبد الله سيد شباب أهل الجنة تنكتها بمخصرتك ، وكيف لا تقول ذلك وقد نكأت القرحة ، واستأصلت الشأفة ، باراقتك دماء ذرية محمد صلى الله عليه وسلم ونجوم الأرض من آل عبد المطلب ، وتهتف بأشياخك زعمت أنك تناديهم ، فلتردن وشيكا موردهم ولتودن أنك شللت وبكمت ولم تكن قلت ما قلت ، وفعلت ما فعلت ، اللهم خذ لنا بحقنا ، وانتقم ممن ظلمنا ، واحلل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حماتنا ، فو الله يا يزيد ما فريت الا جلدك ولا حززت الا لحمك ، ولتردن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما تحملت من دماء ذريته وانتهكت من حرمته فى عترته ولحمته ، حيث يجمع الله شملهم ويلم شعثهم ويأخذ بحقهم :

(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) .

وحسبك بالله حاكما وبمحمد صلى الله عليه وسلم خصيما وبجبريل ظهيرا ، وسيعلم من سول لك وأمكنك من رقاب المسلمين — بئس للظالمين بدلا — أيكم شر مكانا وأضعف جندا ، ولئن جرت على الدواهى مخاطبتك ، انى لأستصغر قدرك واستعظم تقريعك واستكثر توبيخك ، لكن العيون عبرى ، والصدور حرى ، الا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء ، بحزب الشيطان الطلقاء ، فهذه الأيدى تنطف من دمائنا ، والأفواه تتحلب من

لحومنا ، وتلك الجثث الطواهــر الزواكى تنتـــابها العواسل (١) وتعفرها أمهات الفراعل (٢) ، ولئن اتخذتنا مغنما لتجدنا وشيكا مغرما ، حين لا تجد الا ما قدمت يداك وما ربك بظلام للعبيد ، والى الله المشتكى وعليــه المعول ، فكد كيدك ، واســع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت وحينا ، ولا تدرك أمدنا ، ولا تدحض عنك عارها ، وهل رأيك الا فند (٣) ، وأيامك الا عدد ، وجمعك الا بدد ، يوم ينادى المنادى الا لعنــة الله على الظالمين ، فالحمــد لله رب العــالمين الذى ختم لأولنا بالسعادة والمغفــرة ، ولآخرنا بالشــهادة والرحمة ، نسأل الله أن يكمل لهم الثواب ، ويوجب لهم المزيد ويحسن علينا الخلافة انه رحيم ودود وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

لم يســتطع يزيد ، مع ما هو عليه من ســلطان وملك وهيبــة يخشاها أكثر الناس ، أن يقاطع كلام السيدة زينب ، أو أن يمنعها من الاستمرار فيه ، مع أنه من لاذع القول ، رغم وجودها فى ذلة الأسر دامية القلب باكية العين مما مر بها من أحداث جسام . وأراد يزيد بن معاوية أن يخرج من هذا المأزق الذى وقع فيه والحرج الشديد الذى أصابه من افتضاح حقيقة أمره ، فلم يستطع أن ينطق بغير هذه الكلمة :

يا صيحــة تحمــد من صوائح

ما أهــون النوح على النــوائح

وأراد يزيد أن يكفر ولو بعض الشيء عن سوء صنيعه وشنيع فعلته ، فعرض على السيدة زينب الأموال الكثيرة التى نهبت منهــا

---

(١) الذئاب .

(٢) الضباع .

(٣) كذب .

وكذلك غيرها لتأخذها عوضا عن الحسين رضى الله عنه وأنصاره ؟ فقالت له :

— يا يزيد ما أقسى قلبك ، تقتل أخى وتعطينى المال ، والله لا كان ذلك أبدا .

وأمر يزيد ، النعمان بن بشير أن يجهزهم بما يصلحهم فى رحلتهم الى المدينة المنورة وان يصحبهم فى ركبهم اليها ، فخرج ومعه بعض رجاله ومنهم بشر بن حذلم ، فأحسنوا الصحبة طول الطريق الى المدينة ، وكان بشر محبا لله ولرسوله ولآل البيت النبوى الكريم ، على خوف من بنى أمية ، وكان لسان حاله يقول :

أحب الحسين ولكنما
لسانى عليه وقلبى معه
حبست لسانى عن مدحه
ضرار أمية أن تقطعه
اذا الفتنة اضطرمت فى البلاد
ورمت النجاة فكن امعة

ولما بلوا مشارف المدينة المنورة قالت فاطمة بنت على لأختها السيدة زينب :

— يا أخية ، لقد أحسن هذا الرجل الينا فى صحبتنا فهل لك فى أن نصله ؟

أجابت السيدة زينب :

— والله ما معنا شىء نصله الا حلينا .

وأخرجتا سوارين لهما ودملجين ، فبعثتا به الى الرجل ، معتذرتين اليه عن ضآلة الهدية .

بيد أن الرجل رد اليهما الحلى قائلا :

— لو كان الذى صنعت انما هو للدنيا كان فى حليكن ما يرضينى ودونه ، ولكن والله ما فعلته الا لله ، ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

العودة إلى المدينة

توّلى على المدينة ذهول عميق ، وروعة عظيمة ، عندما سمعت بشر بن حذلم يرفع صوته بالبكاء وينشد قائلا :

يا اهل يثرب لا مقـــام لكم بهــا
قتــــل الحســـين فأدمعى مدرار

الجسم منـــه بكربلاء مضرج
والراس منــه على القنــاة يدار

ثم نادى : هذا على بن الحسين مع عمــاته واخواته قد حلوا بساحتكم ونزلوا بفنائكم ، وانا رسوله اليكم اعرفكم مكانه .

فخرج الجميع رجالا ونساء ولم ير اكثر من ذلك اليوم باكيا او باكية وهم يستقبلون ذلك الركب الكريم وينادى قائلا :

اترجـــو امــة قتلت حســـينا
شــفاعة جده يوم الحســـاب

واندفعت زينب بنت عقيل بن ابى طالب ، ومعهــا نساؤها وهى حاسرة تلوى بثوبها وتصرخ :

ماذا تقــولون ان قال النبى لــكم
ماذا فعــلتم ، وانتم آخر الأمم
بعترتى وبأهلى بعــد مفتقدى
منهم اسارى ، ومنهم ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائى اذ نصحت لكم
ان تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

ولما سمع والى المدينة عمرو بن سعد (١) أصواتهن ضحك وصعد المنبر فأعلم الناس بمقتل الحسين رضى الله عنه .

ولما بلغ عبد الله بن جعفر قتل ابنيه ، استرجع ، فدخل عليه بعض مواليه والناس يعزونه فقال :

ـــ هذا ما لقينا من الحسين .

فحذفه ابن جعفر بنعله وقال :

ـــ يا ابن اللخناء ، أللحسين تقول هذا ؟ والله لو شهدته لأحببت ان لا أفارقه حتى أقتل معه ، والله انه لمما يهون على المصاب بهما انهما أصيبا مع أخى وابن عمى ، مواسيين له صابرين معه ، وان لم تكن آست الحسين يدى ، فقد آساه ولداى .

* * *

كان وجود السيدة زينب فى المدينة المنورة كافيا ، لأن تلهب المشاعر ، وتؤلب الناس على الطغاة ، فقد راحت تخطب الجماعات مظهرة عدوان يزيد بن معاوية وبغى عبد الله بن زياد وطغيان أعوانهما على أهل البيت النبوى الكريم . فأثارت الثائرة ، وهيجت الألباب ، ولفتت أنظار الأحرار الى الدم المسفوك والثأر المضيع ، حتى كاد الأمر يفسد على بنى أمية ، فكتب عمرو بن سعيد والى المدينة يستنجد بيزيد ويقول له :

« ان وجودها بين أهل المدينة مهيج للخواطر ، وانها فصيحة عاقلة لبيبة ، وقد عزمت هى ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين » .

فأمره « يزيد » أن يفرق البقية الباقية من أهل البيت النبوى الشريف فى الأقطار والأمصار .

---

(١) قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعد بعد ذلك قتلة فظيعة .

.. وطلب الوالى الى السيدة زينب ان تخرج من المدينة فتقيم حيث تشاء . وقد عز ذلك وعظم عليها أن ترحل من ارض الآباء والأجداد ؛ مهبط الوحى وحيث توجد الأعظم المطرات لآلهـا ، وقالت :

— قد علم الله ما صار اليه أمرنا ، قتل خيرنا ، وسيق الباقون كما تساق الأنعام ، وحملنا على الأقتاب ، فوالله لاخرجنا وان اريقت دماؤنا .

واجتمع عليها نساء بنى هاشم وتلطفن معها فى الكلام وواسينها وحبذن لها الخروج . وقالت لها زينب بنت عقيل بن أبى طالب :

— يا بنت عماه ؛ قد صدقنا الله وعده وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء فطيبى نفسا وقرى عينا ، وسيجزى الله الظالمين ، ارحلى الى اى بلد آمن .

وقد اختارت السيدة زينب رضى الله عنها ، مصر دارا لاقامتها لما سمعته عن أهلها وحبهم لأهل البيت النبوى الكريم وعظم مودتهم وولائهم لذوى القربى ، ولما سمعته من أن مصر كنانة الله فى أرضه ، ولما سمعته بما حدثت به أم سلمة من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى بأهل مصر فقال :

« انكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لهم ذمة ورحما » .

وفى رواية اخرى :

« انكم ستفتحون مصر وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فاذا فتحتموها فأحسنوا الى أهلها فان لهم ذمة ورحما » . أو قال : « ذمة وصهرا » . رواه مسلم .

وصحبها فى مجيئها الى مصر بعض آل البيت الكرام .

السيدة زينب في مصر

فتحت مصر قلبها وذراعيها تستقبل السيدة زينب ومن معها من آل البيت النبوى الكريم . فما كاد خبر رحيل السيدة زينب يبلغ والى مصر اذ ذاك مسلمة بن مخلد الأنصارى ، حتى توجه ومعه جماعة من أصحابه ورهط كبير من أعيان مصر وعلمائها ووجهائها وتجارها ليكونوا فى شرف استقبالها . فاستقبلوها عند قرية على طريق مصر والشام شرقى بلبيس عرفت فيما بعد بقرية العباسة نسبة للعباسة ابنة أحمد بن طولون .

وقد تقدم مسلمة من السيدة زينب وعزاها فى خشوع وخضوع ، وبكى فبكت وبكى الحاضرون ، ثم قالت : « هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون » .

وقد وافق دخول السيدة زينب رضى الله عنها مصر ، بزوغ هلال شعبان سنة احدى وستين هجرية الموافق ٢٦ ابريل سنة ٦٨١ ميلادية ، وكان قد مضى على استشهاد الحسين رضى الله عنه ستة أشهر وأيام .

وقد قال أحد الشعراء فى اختيارها الاقامة بمصر :

لما رجعت من الشام ليثرب
من بعد فاجعة الامام الحسين
طلبوا اليك الظعن للبلد الذى
تستوطنين خارج الحرمين
فاخترت مصر فرحبت بك وانثنت
تعتز من شرف على الكونين

وقد انزلهـا الوالى هى ومن معها فى داره بالحمراء القصوى ترويحا لها ، اذ كانت تشكو ضعفا من اثر ما مر بها . فنزلت بتلك الدار معززة مكرمة ، وبقيت فيها موضع اجلال المصريين وتقديرهم ، حيث كانوا يفدون الى منزلها الكريم ملتمسين بركتها ودعواتها ، مستمعين الى ما ترويه من الأحاديث النبـوية الشريفـة والأدب الدينى الرفيع .

وبقيت السيدة زينب بتلك الدار أقل من عام بقليل ، فلم تر خـلال مدة اقامتها الا عابدة متبتلة متهجدة صوامة قوامة تاليـة لآى القرآن المجيد .

وانتقلت رضوان الله عليها الى الرفيق الأعلى عشية يوم الأحد لاربع عشرة مضين من رجب عام ٦٢ هـ الموافق ٢٧ مارس سـنة ٦٨٤ م ، فمهدت لها الأرض الطاهرة مرقدا لينا فى مخدعها فى دار مسلمة حيث اقامت وحيث اختارت أن تكون ضجعتها الأخيرة .

جاء فى كتاب « اسعاف الراغبين » للصبان :

« قال الشيخ الشعرانى فى مننه ، اخبرنى سيدى على الخواص أن السيدة زينب المدفونة بقناطر السباع « فى مصر » هى ابنة الامام على ، وأنها فى هذا المكان بلا شك ، وكان يخلع نعله فى عتبة الدرب ، ويمشى حافيا حتى يجاوز مسجدها ، ويقف تجاه وجهها ، ويتوسل الى الله تعالى فى أن الله يغفر له »

وقال العبدلى النسابة فى كتاب « أخبار الزينبات » :

« حدثنى ، اسماعيل بن محمد البصرى ـ عابد مصر ونزيلها ـ قال حدثنى حمزة المكفوف قال اخبرنى الشريف أبو عبد الله القرشى قال سمعت هند بنت أبى رافع بن عبيد الله بن رقية بنت عقبة بن نافع الفهرى تقول : توفيت زينب بنت على عشية يوم الأحد لخمسة عشر يوما مضت من رجب سنة ٦٢ من الهجرة وشهدت جنازتها

ودفنت بمخدعها بدار مسلمة المستجدة بالحمراء القصوى » .

وقد صار قبرها مزارا مباركا يفد اليه المسلمون من كل حدب وصوب يتبركون به ويسألون ربهم فيه صالح الدعوات .

هــذا ضريح شــقيقة القمــرين
بنت الامام شريفــــة الأبوين
وسليلة الزهراء بضــــعة أحمد
نور الوجود وســـيد الثقــلين
نسب كريم للفصــيحة زينب
شمس الضحى وكريمة الدارين

صورة وصفية

من اقدم الصور الوصفية التى حفظت للسيدة زينب رضى الله عنها ، تلك الصورة التى نقلها « الطبرى » عمن رآها فى كربلاء قال :

« ... وكأنى انظر الى امرأة خرجت مسرعة كأنهـا الشمس طالعة .. فسألت عنها ، فقالوا : هذه زينب بنت على » .

ونقل ابن كثير فى « البداية والنهاية » قال :

« وخرجت جارية كأنها الشمس حسنا .. فاذا هى زينب بنت على من فاطمة » .

ويصفها عبد الله بن أيوب الأنصارى ـ وقد رآها عقب وصولها الى مصر ، فيقول :

« ... فوالله ما رأيت مثلها وجها كأنه شقة القمر » .

وكانت السيدة زينب يومئذ فى الخامسة والخمسين من عمرها ، مكدودة ، متعبة ، ثكلى ، فكيف بها فى ميعة الصبا ، وريعان الشباب قبل أن تمضغها الأيام ، وتعتصرها الآلام والأحزان ؟

والسيدة زينب قوية الشخصية ، ثابتـة الفؤاد . ويصفها ابن الأثير بأنها « امرأة عاقلة لبيبة جزلة » ورثت عن أبيها الامام على بن أبى طالب الفصاحة فى القول والقدرة على التعبير والبيان ، وقد كان رضى الله عنه معروفا بسيد الفصحاء وامام البلغاء ، حتى لقد قيل فيه : «كلامه فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق » . ولذلك كانت السـيدة زينب عنـدما تتكلم او تخطب تستطرد فى انسجام وسبك جميلين ، لا يعلق بكلامها ركاكة أو يظهر عليه ظل الابتذال ، سهل الورود على الطبع مع سرعة خاطر .

روى « الجاحظ » فى « البيان والتبيين » عن «خزيمة الأسدى» أنه قال :

« دخلت الكوفة بعد مقتل الحسين .. فلم أر خفرة أنطق منها ، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين على بن أبى طالب » .

وقد وصف الشاعر مهدى بن داود الحلى فصاحتها وبلاغتها فى قصيدة جاء فيها :

قد أسروا من خصها بآية التطـ
ـهير رب العـرش فى كتـابه
ان ألبست فى الأسر ثوب ذلة
تجملت للعـز فى اثوابـه
ما خطبت الا رأوا لسـانها
أمضى من الصمصام فى خطـابه
وجلببت فى أسـرها آسرها
عارا رأى الصـغار فى جلبـابه
والفصحاء شـاهدوا كلامها
مقـال خير الرسـل فى صوابه

* * *

ان المستجلى لآثار السيدة زينب يتمثل أمام عينيه رمز الحق ، رمز الفضيلة ، رمز الشجاعة ، رمز المروءة ، فصاحة اللسان ، مثال الزهد والورع ، مثال العفاف والشهامة .. وكانت عند أهل العزم أم العزائم ، وعند أهل الجود والكرم أم هاشم ، وكثيرا ما كان يرجع اليها أبوها واخوتها فى الراى ، فسميت صاحبة الشورى ، كما كانت دارها مأوى لكل ضعيف ومريض ومحتاج فلقبت بأم العواجز ، ولما وفدت الى مصر كان الوالى ورجاله يعقدون جلساتهم بدارها وتحت رياستها فعرفت برئيسة الديوان .

تربت السيدة زينب فى مدينة العلم النبوى ، وتغذت بلبان العلم من امها الصديقة الطاهرة ، وطوت عمرا من الدهر مع الحسن والحسين رضى الله عنهما يزقانها العلم زقا ، فهى من عباب علم آل محمد عليهم السلام وعلب فضائلهم ، التى اعترف بها يزيد بقوله فى الامام السجاد :

« انه من أهل بيت زقوا العلم زقا » . وقد وصفها ابن أخيها على بن الحسين فقال :

« أنت بحمد الله عالمة غير معلمة وفهمة غير مفهمة » يعنى بذلك أن مادة علمها هى مما منح وفتح به على رجالات بيتها الرفيع وأفيض عليها الهاما .

وقد روت كثيرا عن امها وأبيها وأخويها وكذلك عن أم سلمة وأم هانىء وغيرهما من النساء .

وروى عنها ابن عباس وعلى بن الحسين وعبد الله بن جعفر وفاطمة بنت الحسين .

قال القزوينى فى كتابه : « رياض الأحزان وحدائق الأشجان » :

« يستفاد من آثار أهل البيت جلال شأن زينب الكبرى بنت أمير المؤمنين عليها السلام ووقارها وقرارها بما لا مزيد عليه حتى أوصى اليها أخوها عليه السلام ما أوصى قبل شهادته ، وأنها من كمال معرفتها ووفور علمها وحسن اعراقها وطيب أخلاقها كانت تشبه امها سيدة النساء فاطمة الزهراء فى جميع ذلك ، وفى الخفارة والحياء ، وأباها فى قوة القلب فى الشدة ، والثبات عند النائبات ، والصبر على الملمات والشجاعة الموروثة من صفاتها ، والمهابة المأثورة من سماتها » .

وقال ابن عنبة فى « أنساب الطالبين » :

« زينب الكبرى .. على كنيتها أم الحسن . تروى عن امها فاطمة الزهراء بنت رسول الله ، وقد امتازت بمحاسنها الكثيرة

وأوصافها الجليلة ، وخصالها الحميدة ، وشيمها السعيدة ، ومفاخرها البارزة وفضائلها الطاهرة » .

وقال جعفر النقدى فى كتابه « زينب الكبرى » :

« ... وتكنى زينب بالصديقة ، وتلقب بالعقيلة ، وعقيلة بنى هاشم ، وعقيلة الطالبيين والعقيلة هى المرأة الكريمة على قومها العزيزة فى بيتها وزينب فوق ذلك - وبالموثقة والعارفة ، والعالمة غير المعلمة ، والفاضلة ، والكاملة ، وعابدة آل على ، وغير ذلك من الصفات الحميدة والنعوت الحسنة » .

مما يروى للدلالة على كثرة علمها وعمق فهمها ، وتفتح عقلها ، أن أخويها الحسن والحسين كانا يتذاكران مرة ما سمعاه من جدهما رسول الهدى من دعوة الى عبادة الخالق جل جلاله ، فدخلت عليهما السيدة زينب رضى الله عنها مستأذنة وملقية عليهما السلام ، وجلست معهما وقالت :

- سمعتكما تقولان ان جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وان لكل ملك حمى ، الا وان حمى الله محارمه ، الا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، والا وهى القلب » . اسمعا يا حسن ، ويا حسين ، أن جدكما رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤدب بأدب الاله ، أدبه فأحسن تأديبه ، يقول فى ذلك عليه الصلاة والسلام : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » . كما هيىء كذلك من رب العالمين لتحمل رسالة الدين والدعوة الى عبادة الله العظيم الواحد فى ذاته وصفاته وأفعاله ، الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . ومن كجدى النبى العربى الهاشمى القرشى ، الذى اصطفاه الله

تعالى واختاره لأن يبين للناس طريق الحياة من خير وشر ، فى أسلوبه العذب الجميل ، وبعبارته الطلية الممتعة والتى تفيض رقة وحنانا وعطفا واشفاقا . ثم استرسلت فى الكلام موضحة ما فهمت من معنى الحديث الشريف معتذرة عن التقصير اذا قصرت وقالت :

— الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات ، فهناك ثلاث درجات فى الدين : حلال وحرام ومشتبه .

أما الحلال فهو ما أحله الله تعالى بأن جاء القرآن الكريم يحله ، وبينه الرسول فى بيانه الواضح كحل الشراء والبيع واقامة الصلاة فى أوقاتها والزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا ، وترك الكذب والنفاق والخيانة ، وكالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وأما الحرام ، فهو ما حرمه القرآن الكريم وهو على النقيض من الحلال ، وأما المشتبه فهو الشىء الذى ليس بالحلال ولا بالحرام .

والمؤمن الذى يريد لنفسه السعادة فى الدنيا والنعيم فى الآخرة ، ما عليه الا أن يؤدى ما أوجبه عليه رب العالمين : ويسير فى طريق القرآن الحكيم ، ويقتدى بالنبى الكريم ويتأسى به ، ويبتعد عن طريق الشبهات ما استطاع ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، وأصبح دينه نقيا صافيا يعبد ربه عبادة خالصة « الا لله الدين الخالص » .

أما من سار فى طريق الشبهات فلا يأمن أن تزل قدمه فيقع فيما حرمه الله ، وان لكل ملك حمى بجوار ملكه . أما حمى ملك الملوك خالق السموات والأرض وما فيهن فانه محارمه . ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « اتق المحارم تكن أعبد الناس » .

وان الله تعالى أودع الانسان مضغة وجوهرة لطيفة اذا صلحت فان الجسد كله يكون صالحا نقيا من الأدران والعلل وعصيان

الخالق الأعظم رب العـالمين ، ذلك هو القلب . فاذا كان القلب سليما ، فان صاحبه يكون يقظا لأمور دينه ومبادىء شريعته ، يرى السعادة كلها فى الاستقامة على هدى القرآن والسنة . ومن سلك هذا السبيل القويم واتبع تلك التعاليم السماوية ، فانه يكون يوم القيامة من الفائزين . ان حياتنا الدنيـا مرحلة من المراحل التى توصل الانسان اما الى الجنة واما الى النار . وليس بعد الموت عتاب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة أو النار .

وما ان انتهت السيدة زينب من كلامها حتى قال لها الحسن رضى الله عنه :

ـــ انعم بك يا طاهرة ، حقا انك من شجرة النبوة المباركة ومن معدن الرسالة الكريمة .

كانت السـيدة زينب فى عبـادتها صورة لما راته من أهلها ؛ صوامة قوامة قانتة لله تعالى تائبة اليـه ، تقضى لياليها متهجدة تالية للقرآن ، ولم تترك ذلك حتى فى كربلاء .

روى عن زين العابدين أنه قال : أن عمتى زينب كانت تؤدى صلواتها من قيام الفرائض والنوافل عند سير القوم بنا من الكوفة الى الشام ، وفى بعض المنازل كانت تصلى من جلوس فسألتها عن ذلك فقالت :

ـــ أصلى من جلوس لشدة الجوع والضعف منذ ثلاث ليال ؛ لأنها كانت تقسم ما يصيبها من الطعام على الأطفال ، لأن القـوم كانوا يدفعون لكل واحد منـا رغيفا واحدا من الخبز فى اليـوم والليلة .

ويروى أن الحسين رضى الله عنه لما ودعها الوداع الأخير ، قال :

ـــ يا أختاه لا تنسينى فى نافلة الليل .

وكثيرا ما كانت تدعو بدعاء آل البيت الذى توارثوه عن جدهم رسول الهدى عليه الصلاة والسلام ، فتقول :

« يا من لبس العز وتردى به ، سبحان من تعطف بالمجد وتكرم ، سبحان من لا ينبغى التسبيح الا له جل جلاله ، سبحان من أحصى كل شيء عددا بعلمه وخلقه وقدرته ، سبحان ذى العزة والمن والنعم ، سبحان ذى القدرة والكرم ، اللهم انى أسألك بمعاقد العز من عرشك ، ومنتهى الرحمة من كتابك ، وباسمك الأعظم وجدك الأعلى وكلماتك التامات التى تمت صدقا وعدلا ، أن تصلى على محمد وعلى آل محمد الطيبين الطاهرين ، وأن تجمع لى خيرى الدنيا والآخرة بعد عمر طويل ، اللهم أنت الحى القيوم ، أنت هديتنى وأنت تطعمنى وتسقينى وأنت تميتنى وتحيينى ، برحمتك يا أرحم الراحمين » .

ومما تلقنته عن أبيها الامام على بن أبى طالب ، الدعاء الذى تعلمته من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيه يقول :

« يا عماد من لا عماد له ، ويا ذخر من لا ذخر له ، ويا سند من لا سند له ، ويا حرز الضعفاء ، ويا كنز الفقراء ، ويا سميع الدعاء ، ويا مجيب المضطرين ، ويا كاشف السوء ، ويا عظيم الرجاء ، ويا منجى الغرقى ، ويا منقذ الهلكى ، يا محسن ، يا مجمل ، يا منعم ، يا متفضل ، أنت الذى سجد له سواد الليل ، وضوء النهار ، وشعاع الشمس ، وحفيف الشجر ، ودوى الماء ، يا الله الذى لم يكن قبله قبل ، ولا بعده بعد ، ولا له نهاية ولا حد ، ولا كفؤ ، ولا ند ، وبحرمة اسمك الذى فى الآدميين معناه ، المرتدى بالكبرياء والنور والعظمة ، محقق الحقائق ومبطل الشرك والبوائق ، وبالاسم الذى تدوم به الحياة الدائمة الأزلية التى لا موت معها ولا فناء ، وبالروح المقدسة ، وبالسمع الحاضر ، والبصر النافذ ، وتاج الوقار ، وخاتم النبوة ، وتوثيق العهد ، ودار الحيوان ، وقصور الجمال ، يا الله لا شريك لك » .

وكانت تردد هذه الاستغاثات وهى قائمة ليلها :

وكم لله من لطف خفى
يدق خفاه عن الفهم الذكى
وكم يسر أتى من بعد عسر
وفرج كربة القلب الشجى
وكم أمر نساء به صباحا
فتأتيك المسرة بالعشى
اذا ضاقت بك الأحوال يوما
فثق بالواحد الفرد العلى
تشفع بالنبى فكل عبد
يغاث اذا تشفع بالنبى
ولا تجزع اذا ما ناب خطب
فكم لله من لطف خفى

وكان لعبادتها وخشوعها لله جل جلاله ، وسمو روحها تأثير فى كلامها فنظمت الشعر الرفيع ومنه :

سهرت أعين ونامت عيون
لأمور تكون أو لا تكون
ان ربا كفاك ما كان بالأمس
سيكفيك فى غد ما يكون
فادرأ الهم ما استطعت عن النفس
س فحملانك الهموم جنون

❋ ❋ ❋

كانت السيدة زينب قانعة زاهدة ، رغم مركزها الكبير ويسار زوجها عبد الله بن جعفر ، فقد التزمت بالحكمة القائلة ان الزاهد من يحب ما يحب خالقه ويبغض ما يبغض خالقه ، ويتحرج من حلال الدنيا ولا يلتفت الى حرامها .

ولذلك عملت السيدة زينب فى حياتها بحديث جدها العظيم صلى الله عليه وسلم اذ يقول :

« اذا أراد الله بعبد خيرا فقهه فى الدين وزهده فى الدنيـــا وبصره عيوبه » .

وفضـــلا عن ذلك فقد تربت السـيدة زينب فى معقل الزهد والقناعة ، فهذا ابوها الامام على بن أبى طالب وهو أمير المؤمنين ـ كانت تجبى اليه الأموال من بلاد المسلمين ، فكان يفرقها ولا يبقى منها شيئا ـ لم يدخر مالا ولم يبن دارا ، وآثر سكنى الخصاص على القصور . ولايكفى لتصوير زهده وعزوفه عن الدنيا ونعيمها انه لم يقتن ضيعة ولا ريعا ، بل كان أمره أبعد من ذلك بكثير ، اذ كان يضطر الى بيع سيفه ليشترى بثمنه كساء ، وقد كانت الدنيا كلها ـ كما قيل ـ بيده .

ففى حلية الأولياء ـ بعدة أسانيد ـ عن أبى رجاء ، قال الأرقم :

« رأيت عليا وهو يبيع سيفا له فى السوق ويقول :

ـــ من يشترى منى هذا السيف ، فوالذى فلق الحبة لطالما كشفت به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان عندى ثمن ازار ما بعته .

قال أبو رجاء :

ـــ يا أمير المؤمنين ، أنا أبيعك وأنسؤك الى العطاء ـ فلما خرج عطاؤه أعطانى » .

كذلك كان رضى الله عنه متقشفا فى لباسه ، وطعامه ، فكان وهو أمير المؤمنـين أخشن الناس مأكلا وملبســا ، كان يلبس الكرباس (١) الغليظ ، فاذا وجد كمه طويلا قطعــه بشفرة ولم

---

(١) ثوب من القطن الابيض .

يخطـه ، فكان لا يزال متساقطا على ذراعه حتى يبقى سـدى لا لحمة له .

وكان يأكل الشعير ، وتطحنه امرأته بيديها ، وكان يختم على الجراب الذى فيه دقيق الشعير ويقول :

ـــ لا أحب أن يدخل بطنى ما لا أعلم .

وكان يأتدم اذا ائتدم بخل أو بملح ، فاذا ترقى عن ذلك فبعض نبات الأرض ، فاذا ارتفع عن ذلك فبقليل من ألبان الابل ، ولا يأكل اللحم الا قليلا ، ويقول :

ـــ لا تجعلوا بطونكم مقابر الحيوان .

روى النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال :

ـــ دخلت على على عليـه السـلام فاذا بين يديه لبن حامض آذتنى حموضته وكسر يابسة . فقلت :

ـــ يا أمير المؤمنين ، أتأكل مثل هذا ؟

فقال لى :

ـــ يا أبا الجنوب ، كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا ـ وأشار الى ثيابه ، فان لم آخذ بما أخذ به خفت الا ألحق به .

وهذه أمها فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، كان فراشها حصيرا من سعف النخيل وجلد شاة ، وكانت تلبس الكساء الغليظ الخشن من صوف الابل وتطحن الشعير بيدها وتعجن وتخبز وتقوم بعمل البيت كله بيديها الكريمتين حتى تأثرتا من ذلك .

فليس بدعا أن تكون السيدة زينب ، وهى من هى ، وريثة كافة الصفات الحميدة التى تجمعت فى نسبها الشريف ، مثالا يحتذى به فى الزهد والقناعة والبعد عن متاع الدنيا ، فأعرضت عن زهرة الحياة من المال والولد والخدم والحشم بخروجها مع أخيها الحسين رضى الله عنه باذلة النفس والنفيس فى سبيل الحق ونصرة الدين ، رغم علمها بما قد يجرى عليهم من المصائب والأحـداث ، مؤثرة الآخرة على الدنيا ، « والآخرة خير وأبقى » .

ضريح السيدة زينب ومسجدها

كان ضريح السيدة زينب رضى الله عنها ــ وهو مكان اقامتها عندما وفدت الى مصر ــ يقع فى الجهة البحرية من دار مسلمة ويشرف على الخليج وجماميز السعدية ، ثم مرت الأيام على هذه الدار فاندثر جزء عظيم منها الا ما كان من ضريح السيدة الطاهرة زينب فانه كان معظما مقصودا بالزيارة وموضع احترام الخاصة والعامة . وكان الناس يتعاهدونه ببناء ما يتصدع من جدرانه . فكان من جملة المشاهد المعدودة التى يتناوب خدمتها اناس انقطعوا لذلك ، يصرف عليهم من وجوه أهل الخير .

وفى زمن دولة احمد بن طولون أجرى عليه ما أجراه على المشاهد الأخرى من عمارة وترميم . فلما جاءت الدولة الفاطمية كان أول من بنى عليه عمارة جليلة من خلفاء الفاطميين أبو تميم معد نزار بن المعز فى سنة ٦٣٩ هـ . وفى أيام الحاكم بأمر الله أمر باثبات المساجد والمشاهد التى لا غلة لها ولا ريع ، وأوقف عليها عدة ضياع وقياصر ، فخص المشهد الزينبى بنصيب وافر من هذه الأوقاف ، وما برح كذلك الى أن زالت الدولة الفاطمية .

وظل هذا المشهد الذى ضم هذه البضعة النبوية الطاهرة موضع عناية جميع الدول التى تعاقبت الحكم ، وقام عديد من أهل الفضل والعلم والولاية يتناوبون خدمة هذا المسجد ومن أجلهم قدرا السيد العارف بالله محمد بن ابى المجد القرشى الحسينى

المعروف بسيدى محمد العتريس شقيق سيدى ابراهيم الدسوقى ، رضى الله عنهما ، وهو المدفون بالجهة البحرية من المسجد .

وفى القرن السادس الهجرى أيام الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، أجرى فى هذا المشهد عمارة واصلاحا أمير مصر ونقيب الأشراف الزينبيين بها ، الشريف فخر الدين ثعلب الجعفرى الزينبى صاحب البساتين التى عرفت بمنشأة ابن ثعلب ومنشىء المدرسة الشريفية التى تعرف الآن بجامع العربى بالجودرية .

وظل هذا المشهد على هذه العمارة الى أن كان القرن العاشر الهجرى ، فاهتم بعمارته وتشييده وجعل له مسجدا يتصل به ، الأمير على باشا الوزير والى مصر من قبل السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم الفاتح ، وكان ذلك فى سنة ٩٥٦ هـ .

وفى سنة ١١٧٤ هـ أعاد بناءه وشيد أركانه الأمير عبد الرحمن كتخدا القازدوغلى ، وانشأ به ساقية وحوضا للطهارة ، وبنى أيضا مقام سيدى محمد العتريس .

وفى سنة ١٢١٠ هـ جددت المقصورة الشريفة من النحاس الأصفر ووضعت على بابها لوحة نحاسية كتب عليها :

[يا سيدة زينب يا بنت فاطمة الزهراء مددك ١٢١٠]

وما زالت اللوحة على الضريح الشريف حتى اليوم .

وفى سنة ١٢١٢ هـ تصدعت جدران المسجد ، فانتدبت حكومة المماليك ، عثمان بك المرادى لتجديده واعادة بنائه . فابتدأ بالبناء الذى ما لبث أن توقف بسبب الحملة الفرنسية على مصر . ثم أكمله بعد ذلك يوسف باشا الوزير سنة ١٢١٦ هـ ، وأرخ ذلك بأبيات من الشعر خطت على لوح من الرخام نصها :

نـــور بنت النبى زينب يعـــلو

مســـجدا فيه قبرها والمـــزار

قد بناه الوزير صدر المعالى

يوسف وهو للعلى مختار

زاد اجلاله كما قلت أرخ

مسجد مشرق به أنوار

وظل التعمير والتجديد يدخلان على هذا المكان الشريف فى العهود التالية . فجدد فى سنة ١٢٧٦ هـ ، كما جدده مقام العتريس . وكتب على باب المقام الزينبى هذا البيت من الشعر :

يا زائريها قفوا بالباب وابتهلوا

بنت الرسول لهذا القطر مصباح

وفى سنة ١٢٩٤ هـ ، جدد الباب المقابل لباب الضريح على الهيئة الموجودة الآن ، ثم جدد المسجد والقبة والمئذنة ، فتم ذلك فى سنة ١٣٠٢ هـ وكتب على ابواب القبة الشريفة :

باب الشفاعة عند قبة زينب

يلقاه غاد للمقام ورائح

* * *

قف توسل بباب بنت على

بخضوع وسل اله السماء

تحظ بالعز والقبول وأرخ

باب أخت الحسين باب العلاء

رفعوا لزينب بنت طه قبة

علياء محكمة البناء مشيده

نور القبول يقول فى تاريخها

باب الرضا والعدل باب السيده

* * *

وفى سنة ١٣٦١ هـ تم توسيع المسجد من الجهة القبلية ، والوجهة الرئيسية للمسجد تشرف على ميدان السيدة

زينب ، وبها ثلاثة مداخل تؤدى الى داخل المسجد مباشرة .

وترتد الوجهة عند طرفها الغربى ، وفى هذا الارتداد باب آخر مخصص للسيدات يؤدى الى الضريح الطاهر وتقوم المئذنة على يسار هذا الباب .

ويحيط بالركن الغربى البحرى سور من الحديد ويقع به قبتان صغيرتان ملتصقتان محمولتان على ستة اعمدة رخامية بواسطة سبعة عقود أقيمتا على قبرى العتريس والعيدروس .

وتقع الوجهة الغربية على شارع السد وبها مدخل على يساره من اعلى ساعة كبيرة . وللمسجد وجهتان أخريان ، احداهما على شارع العتريس والأخرى على شارع باب المبيضة . وقد انشئت وجهات المسجد ومنارته وقبة الضريح على الطراز المملوكى وهى حافلة بالزخارف العربية والمقرنصات والكتابات .

والمسجد من الداخل مسقوف جميعه ، جمل سقفه المنقوش بزخارف عربية على عقود مرتكزة على أعمدة من الرخام الأبيض ويعلو الجزء الواقع أمام المحراب شخشيخة ، كما يعلو الجزء الأوسط من المسجد قبل التوسيع شخشيخة بها شبابيك زجاجية بوسطها قبة صغيرة فتح بدائرها شبابيك من الجص المفرغ المحلى بالزجاج الملون . ويقع الضريح الطاهر بالجهة الغربية من المسجد وبه قبر السيدة زينب رضى الله عنها تحيط به مقصورة من النحاس تعلوها قبة صغيرة من الخشب .

ويعلو الضريح قبة مرتفعة ترتكز فى منطقة الانتقال من المربع الى الاستدارة على أربعة أركان من المقرنص المتعدد الحطات ويحيط برقبتها شبابيك جصية مفرغة محلاة بالزجاج الملون .

وقد عملت التوسعة من الداخل على نظام باقى المسجد وهى تشتمل على صفين من العقود المحمولة على أعمدة رخامية تحمل

سقفا من الخشب المنقوش بزخارف عربية وبواسطة شخشيخة مرتفعة عنه بها شبابيك للاضاءة وقد بنيت وجهات هذه التوسعة بالحجر على طراز وجهات المسجد الاخرى . وقد أضيف الى المسجد مساحة جديدة تقدر بحوالى الألفين وخمسمائة متر مربع.

وبذلك اتصل المسجد الزينبى بمسجد الزعفرانى الواقع فى الجهة القبلية منه من ناحية شارع السد ، وتضاعفت مساحة المسجد الذى ضمت بعض مرافقه الى الضريح ليتسع لآلاف القاصدين الذين يفدون على هذا المقام كل يوم زائرين ومتبركين به.

واعدت بالمسجد مكتبة كبيرة تضم عشرات الآلاف من المجلدات من بينها العديد من المخطوطات النادرة فى الشئون الدينية ، والحق بها قاعة فسيحة للمطالعة . كما اقيمت بالمسجد دورات كبيرة للمياه تستوعب آلاف القاصدين .... الى .. رحاب السيدة زينب رضى الله عنها وارضاها .

مراجع الكتاب

- القرآن الكريم
- تفسير البيضاوى
- نور الأبصار — للشبلنجى
- اسعاف الراغبين — محمد الصبان
- الصواعق المحرقة — احمد بن حجر الهيثمى
- تاريخ الرسل والملوك — الطبرى
- اسد الغابة — عز الدين بن الأثير
- الاستيعاب — ابن عبد البر
- نهج البلاغة — ابن ابى حديد
- رياض الأحزان وحدائق الاشجان — محمد حسن القزوينى
- اهل البيت — توفيق ابو علم
- اخبار الزينبات — العبدلى
- زينب الكبرى — جعفر النقدى
- بطلة كربلاء — د. بنت الشاطىء
- الرياض النضرة — المحب الطبرى
- السيدة زينب — على احمد شلبى
- الحرية عند العرب — محمود الشرقاوى

فهرس

صفحة





مطبوعات دار الشعب

تصدر عن الشعب مؤسسة صحفية عربية

اخصائي في المطبوعات العاجلة

الإدارة : ٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة - ت ٣١٨١٠ ● مكتبة دار الشعب - ت ١

التوزيع : مكتبة دار الشعب

المطابع : قصر العيني ت ٣١٨١٠ - ٣١٨١٨ - ٣١٨١٩

دير النحاس - تليفون ٨٤٤٨١٠